أحمد لؤي مشطر

DEVIL
NEVER
DIES

الحقيقة بلسان الشيطان

رواية

اسم المؤلف

احمد
ا ء

Devil never die

الحقيقة
بلسان الشّيطان

(رواية)

عنوان الكتاب: الحقيقة بلسان الشّيطان
المؤلف: .....
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 112 صفحة
مقاس الكتاب: 20/14 سم
الترقيم الدولي: 978 -9931 -9901 -3 -0
الإيداع القانوني: سبتمبر 2022

5 نهج سايغي أحمد سيدي مبروك قسنطينة
الهاتف: 52 90 75 77 07
E.mail:editionnessma@gmail.com

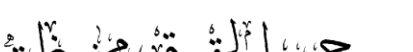

جميع الحقوق محفوظة لدار نسمة يمنع منعا باتا الاستنساخ أو الاقتباس من نصوص وصور هذا الكتاب إلا بإذن خطي من المؤلف ودار النشر.

© منشورات نسمة 2022
Isbn: 978-9931-9901-3-0
الإيداع القانوني: سبتمبر 2022

قبل البدء

ليس المهم من أكون أو من تكون، أنت تحمل كتابي بين يديك الآن وهذا كاف،

في المقابل أنا أنصحك بأن تتوقف عن القراءة وتُعيده للرّف ما دامت الفرصة سانحة أمامك.

***

التكبر والتّواضع، الوفاء والخيانة، الصّدق والكذب، المحبة والكره، الرّحمة والقسوة، العطف، الحسد، الصّفاء، الحقد، أشياء معنوية تُلامس أرواحنا، تعكس لنا معادن الأشخاص، فيسهل علينا التفريق بين الخير والشر.

تختلف هذه الأوصاف من فرد لآخر، وبها يمكن تصنيفه في الخانة المناسبة، لكن وكما اعتادت البشرية إبهارنا وُجد من تمكن من جمعها كلها في جسد واحد، ما أثار الجدل بين الأطباء والمختصين ليُطلق عليه في آخر المطاف بالمريض النّفسي، فأيهم أنا وأيهم أنت؟

أنا لا أعرفك، فلحسن حظك ستعرفني أنت؟

إهداء:

بالنسبة لنا نحن كمرضى نفسيين لا نحتاج لإجهاد أنفسنا في خط إهداء لأحد، كونه مضيعة للوقت والكلمات وفقط، عزيزي القارئ بما أنك وصلت لهذا الحد سأُناقض ذاتي، باتت هذه الصفحة من نصيبك، الإهداء لك شرفتها...

سأصمت قليلا الآن أكمل أنت الباقي، في حين أستعد أنا لسرد روايتي...

استهلال

بدأ كل شيء في مدينة كولونيا الألمانية العام 1942، قنابل فاق عددها الألف ألقيت على مختلف المصانع والمدن الصناعية في الرّايخ، ضمن غارات جوية شنّتها القوات الجوية للحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية، حُوِّلت على إثرها المناطق المأهولة بالسكان إلى حطام بحلول عام 1945، إذ دامت هذه الغارات ثلاث سنوات على التوالي، سقط فيها الكثيرون قتلى، واكتست أرض ألمانيا بالجثث والدماء...

جرحى، قتلى، منهم من وُجِد برفقة عائلته تحت الأنقاض، ومِنهم من اعتُبِر من المفقودين، كان الأمر بِرمّته عبارة عن كابوس مظلم تعيشه مدن ألمانيا أسفر عن مقتل الكثير من المدنيين، وكاد يستمر لولا انتحار هتلر وإيجاد جثته في الثلاثين من أبريل عام 1945 حين كانت القوات السوفياتية تشق طريقها باتجاه مقر الرّايخ، لينتهي الأمر باستسلام ألمانيا في السابع من مايو من نفس السّنة، وانتهت الحرب العالمية الثّانية باستسلام اليابان بعد أن تم

تفجير قنبلتين من طرف الولايات المتحدة في هيروشيما وناجازاكي واللّتين أسفرتا عن مقتل أزيد من 120.000 مدني.

رُوِي أنّ الحرب العالمية الثّانية من أعظم الكوارث التي عاشتها البشرية آنذاك، فمِن نتائجها أن سقط أزيد من 55 مليون بشري.

التّفكير في الأمر مرهِق ومُتعِب، وفي نفس الوقت مُخيف، فماذا سيكون الأمر لو كنت شخصا عاش تلك الأحداث بحذافيرها وكنت من الناجين بصدفة ورحمة من الرّب؟

كيف ستكون حالتك وقد رأيت الكثيرين يُقتلون أمام ناظريك؟

أطفال يُتِموا، نِساء رُمِلت وأخرى ثُكِلت، جنين أُجهِض، رضيع يلفظ آخِر أنفاسِه تحت الأنقاض، والكثير الكثير من الفواجِع، ما ردّة فِعل من عاش هذا الواقع !!

***

اليوم الأول مِن يناير سنة 1960، مضى 15 سنة على مرور هذه الفاجعة...

ألبارت ألماني في أواخِر الثّلاثينيات مِن عمره، حضر

وشَهِد هذه الأحداث، فقد أصدقاء كُثر، عائلته ماض اندثر، الحرب حولتها إلى رماد، منهم من تُوفي آنذاك ومنهم من قد رُحِّل وهُجِّر، فرَّ بجلده ولحمه بحثا عن ملاذ آخر، لكن في كل الأحوال كانت النّتيجة واحدة ألا وهي الموت، أمّا هو فكان من حظه العاثِر أن نجا، وانتهى بِه الأمر مشنوقا في شقتِه صبيحة يوم الأحد الموافق للعشرين من شهر مارس في نفس السّنة وقد انتحر.

***

يروي لنا أدريان وهو طبيب نفسي مختص، كان يُتابِع حال ألبارت طيلة تِلك الفترة، كان آخِر لِقاءٍ بينهما يوم الأربعاء قبل موته بثلاثة أيام...

الفصل الأول

بدأ كل شيء حين زَارني ألبارت لأول مرة في الثالث عشر من شهر ديسمبر سنة 1947، وراح يروي لي ما حصل معه، ما واجهه أثناء الحرب وما نتج عنها، إذ صرّح أن كل شيء بدأ بصور الجثث التي شَاهدها، تلاها ذِكرى سقوط أصدقائه الواحِد تِلوَى الآخر، يعيش كوابيسا لا تُفارِقُه ولا تُغادِر مُخيلَته، بات يخشى النّوم ويخاف حتى من ظِلّه، يرى الموت أمامه فِي كل لحظة وثانية تمر.

لنعد بالذاكِرة قَليلًا لِما مضى، بَعد أن روى لِي كلّ شيء أصبحت أشهد نوبات فَزعِه بأم عيني، أيقنت عندها ما يُعانيه...

***

- متى سينتهي الأمر يا دانيال؟ متى ستتوقف القنابل عنِ الهطول كالأمطار؟ متى ستعود السماء لطبيعتها أم ستبقى دوما بلون النيران؟ متى ستعود الأرض لحالها تكتسي وتتزين بمختلفِ الألوان أم سيبقى اللون الأحمر لون الدماء؟ أم

ستظل هذه الأخِيرة دوما هي العنوان؟ أم إلى أن لا تبقى قطرة دم واحدة في جسد بشري على أرض ألمانيا؟ إلى متى ستبقى هذه الحرب اللعينة تستنزف وتسلِب مِنَّا الحياة؟ إلى متى أجبني يا صديقي العزيز؟

- لا أعلم يا ألبارت، لا أعلم...

-لكِن سيأتِي الفرج من الرَّبِ ما علينا إلا الصّبر فقط.

ردّ دانيال مُواس لصدِيقه، الرَّب يختبِرنا يا صديقي العزيز ويمتحِننا كي يرى قُوة إيمانِنا بِرحمتِه ومدى تمسكِنا به.

- هذا يعني أن حياتنا لن تستمر على هذا الحال ونحن هاربون فارون من ملجأ لآخر، لن نبقى كالفئران في مخابئنا تحت الأرض؟ رد ألبارت مُحاوِلًا التّمسك بخيطٍ مِن الأمل، لكِن لو صدق ما قلت هل يختبِر الرَّب شعبه وعبِيده بالقضاء على وُجودِهم؟

- هل تشك في حِكمته يا ألبارت؟

- كلا، ولكِن مهما كنت ذا إيمان قويٍّ سيتزعزع، حتى القِس والبابا، خُدام الرّبِ والكنيسة فَرُوا بِجلودهم وَاختفوا عَنِ الأنظَار ما إنِ اندلعتِ الحرب، كُل ما أرجوه هو أن تكون نِهايتنا خيرًا.

تقدم ظل من الشابين ببطء وقال: إنَّها الثالثة صباحًا والقنابل فوقنا تهطل سيلًا جارِفًا لا أظن أنّ هذا الملجأ سيتحمل أكثر، سينهار في أي لحظة علينا مِثلَ ما حَصل مع الكثير، لِنَخرجَ مِن هنا بأسرَعِ وقت.

- لِنصبر يا دِيفيد لن يطول الأمر ستنفذ ذخيرة الليلة عما قريب وتعود الطائرات مِن حيث أتت.

رد دانيال في هذه اللحظة على الوافد عليهما كي يُزِيح المخاوِف التي تُحِيطه.

تردد صوت ألبارت بتشاؤُمٍ أكثر: سينتهي أمرُنا لا مَحالة اليوم أو غدًا، لقد سقط مِنّا الكثيرون خلال أسبوع واحِد، حتى أصدِقاؤنا وزُملاؤنا، بِيتر، فِيليب وحتى رفاييل، ما احتمال نجَاتِنا في رأيك؟ إنَه تحت الصِّفر يا دانيال، لا تُحاوِل عبثا يا رفِيقي، أَلا تَرى كل ما يَدور مِن حولك؟ ألا تسمع ما يجرِي في الخارج؟ ما يرحمون أحدا كَبيرا كان أم صغيرا، نبيلا كان أم فقيرًا، مِن كِلا الجنسين، الوَاقِع هُو أنَّ ألمانيا تسقط...

عمّ الصمت الأجواء بينهم في حين جثا بنفس اللحظة ديفيد على رُكبتيه وقد تسلل إلى قلبه الخوف والهلع، واستسلم لِما يقوله ألبارت، واستند دانيال على أحد الجدران غارِقًا فِي أفكارِه...

مرت لحظات من السكوت ليكسر دانيال هذا الحاجِز: انظـر مِـن حولِـك يـا ألبـارت كـل الحاضِـرين هنـا معنـا الآن، الكثـيرون مِـنهم فقـدُوا أشخاصـا مُحبَبِـين إِلـيهم، مُـؤلِفين إلى قلـوبهم، لكِـنهم مُتَمـسِكون بخـيط أمـل ولـو كان صغيرا.

انظر إلى ابتسامة ذاك الصّبِي هناك، يُدعى كِيفن يبلغ السِّن الثامنة فقط، أتعلم أنَّه فقَدَ وَالِديه وأخته في ثاني ليلة مِـن انطـلاق الغـارات، كـانوا يَفِـرون إلى المَلجـأ لكِـن لـسوء حظِهم لم يُفلِحوا في النجاة عداه، شهِد مقتَل عائِلته وهو الآن يتيم بِلا أحد، مع ذلِك يبتسم، وقد سألته ذات ليلة عن حالِه، إجابته كانت صادمةً لِي: " أنا حزين لكِن حُزنِي فِيما سيُفِيد، فهو لن يُعيد لي عائلتي"، ثم ابتسم وأتبع رده: " أنا غاضـب وسأسـعى أن لا يفقِـد آخـرون عـائلاتِهم وأحِبـتهم، لِنلتحـق بالكتيبـة ونُقاتِـل أو لِـنكن حـتى مُـسعفين للجـرحى هنـاك، فقـد علمتنـا هـذه الأيـام الإسـعافات الأوليـة ومـن لا يعرِفها سنُعلِمُه إياها، المهم أن نقِف ونُقاتِل، أن نسقط في سـاحة المعركـة أهـون مـن أن نـسقط تحـت سـقف دون مُقاومـة "، أمّـا هُنـاك أتـرى تِلـك العجـوز يُنادِيهـا الكثـيرون بالجـدة مـاري، سَـلمت روحَي ابنيهـا الوحيـدين لهـذه الحـرب بعـد أن خَـضعا للتّجنِيـد الإجبـاري فِي حِـين اهتممنـا نحـن

بالتَّهرب من الخِدمة العسكرية، فباتا ضِمن الجيش النَّازي تحت قِيادة أدولف هِتلر ولسوء حظهما أن لقيا مصرعهما، وهاهي الآن تخيط ثِياب اليتامى وتُساعِد من يحتاج المساعدة...

أَترى فِي تِلك النَّاحِيةِ مِن هناك؟ إِنَّه العم بول...

قطع ألبارت كلام دانيال: لا تواصِل يا صديقي فقد شعرت بالخِزي والعار، الجميع هنا عانى مِن هذه الحرب، فقد أجهضت كل شيءٍ فينا ماديًا أو معنوِيًا كان، أمّا نحن فبِمُجرد أن أعلنوا عن التَّجنِيد الإجباري بدأنا بالاحتجاج أنّه ظلم لنا، حكم تعسفي ضدنا، وَسَعِينا جَاهِدِين للتَّملص مِنه، والتمسنا لِذلك الكثِير مِن الأَعذار..

- لِنكن شمعة، صاح دِيفيد واقفا، لِنكن صوت المظلومين، لنكن ضوء لهم، بصيص أمل يضِيء دروبهم، لِنكن ذوي فائدة كي لا يُعاني آخرون ما عاناه الكثيرون إِبّان هذِه الحرب الطاحنة...

- صَدقت يا دِيفيد، رد دانيال مُؤَيِدًا لِاقتراح صديقه، لن يُفِيدنا الاختباء والهروب مِن جُحرٍ لِآخر، ولن نُفيد دولتنا بِشيء يُذكر، لن يتغير قدرنا، وسيُكتب الموت مَصيرًا لنا، لِنستفِق مِن غفلتِنا ورُكودِنا، آن أواننا، هيا يا أَلبارت لِنردد

صوتًا وَاحِدًا، لن نسقط لن نميل، ألمانيا فوق الجميع، ألمانيا فوق الجميع..

هُنا اقتنع ألبارت بِفكرة صَدِيقيه، كان رَده بالإيماء إيجابًا بعد أن رأى عزِيمتهما وَإصرارهما على ذلك، بعد أن تبادرت لِذهنه صور لِأشخاص كان يومًا على مَعرِفةٍ بِهم، فَقدُوا أرواحهم، وَما عاناه أهلهم وذويهم مِن بَعدهم مِن ألم وحزن وَتحسر، وتَذكّر أهله الذِين لا يَعرِف شيئًا عَنهم سِوى أَنّه قَد تَخلّف عن الِالتحاق بِهم، إِذ أَنَّهم غَادروا المَدِينة لِيجتمعوا بِأحد معارِفهم في الضفة الجنوبية الغربية، بالقرب مِن الحدود الألمانية مع فرنسا، باعتبارِهم ذَوي امتدادات وأصولٍ فرنسية، بَعِيدًا عنِ الفوضى القائِمة هنا في فرانكفورت عسى أن يتمكنوا من النَّجاة ووَسِيلةً لِتجنب ما حَلَّ بالكثيرين.

هَل هم بِخير؟ على قَيد الحياة؟ لا عِلم له فَلا خبر عنهم، انقطعت اتصالاتهم وَما مِن سبيلٍ لِمراسلتِهم.

تَسارع نَبض قَلبِه حِينها أَحس بالحنين للأهل، وامتزجت مَشاعره بين الحب وَالشَّوق للعائِلة والحقد على هَذِه الحرب وسرى الغضب في دِمائه، حِينها أَدرك حَقِيقة كل شيء واستفاق مِن غفلته.

وعلى صوته صرخ رُفقةَ صَديقيه صوت رجلٍ واحد فلتحيا ألمانيا، فلتحيا ألمانيا، فلتحيا...

وماهي إلّا لحظات فإذا بِهم مُحاطون بكل من في الملجأ شبانًا ورِجالًا تَخلفوا عن الالتحاق بالخدمة العسكرية، يردِدون معهم شِعارهم.

***

كَان ألبارت شَابًا عِشرينِيًا آنذاك، أشقر الشّعر ذو بَشرة بَيضاء ضَعِيف البنية اتسم بِطيبة قَلبِه وَرِقتِه، ذُو شَخصِيةٍ مضطرِبة إذ يتردد قَبل الأقدام على أي خطوة، لطالما كَان يَعتمِد بِكثرة على استِشارة دانيال في كُلِ أمر، باعتباره أحد أصدِقائه القُدامى، الذِّين تربّى وَترعرع معهم.

أَمَّا دانيال فكان شابًا يَكبُر ألبارت بِسنة، كَان مِثالًا للشخص المثالي، ذو عقل ناضج وفكرٍ واعٍ، تَفوَّقَ على مَن هم بِسِنه فِي كلِّ المجالات، كما قد أَحاط بِكُل المَيادِين عِلما.

يَتبقى لَنَا في الصورة ديفِيد، كَان فِي مِثل سِن ألبارت لَكِن لَطالما بَدا أكبر حتى مِن دانيال، كان شخصا ذُو بُنيةٍ جَسدِيةٍ ضَخمة، فِي العادة مَن هم بِمثلِه كَانوا يتنمرون على من بِمثلِ أعمارهم، لَكِنه كان شابا لطِيفًا مَع الجمِيع، يُدافِع عنِ كل مَن يتِم التَّسلط عليهم، تَميَّز بِخفة دَمِه وَمَرحِه.

كَان زَميل ألبارت بِداية فِي الدِّراسة ثمَّ مع مرور الزَّمن تطورت علاقاتهما وَأصبحا صَديقين، وألبارت بِدوره كان وسيلة تعرفه على دانيال.

***

كان الثلاثة شرارة لاتقاد لهب في قلوب الكثِيرين، سببًا لتجريد من كان يَهاب هذه الحرب ويخشى أن يلقى حتفه فِيها من خوفه وضُعفِه.

كسر صوت رجلٍ تِلك الهتافات، كان منزويا في إحدى الزَّوايا يترقب بِصمتٍ فقط، لديكم هِمةٌ جيدةٌ، وهدفٌ تصبون إليه، ودَافِعٌ للقِتال، لكِن السؤال المطروح الآن: "بأي وَسِيلة ستُواجهون عدوكم؟ وما الإمكانيات التي تملكونها؟ مَا القُوة التّي يَملِكها حفنةٌ مِن الشبان؟ "

عمَّ السُّكون مِن جديد وخَيمت سحابة سوداء من التَّشاؤم، ليُصبح الحديث والعبارة التي تتردد بِكثرة:" معه حق، كيف نقاتِل؟ بِأي وَسيلة؟ أين العدة؟ وأين العَتاد؟ لو خرجنا للساحة لَكُنا نسير نحو الموت المُحتم ونحن ندري نِهاية هذا الأمر سَلفًا، حياتُنا لا تهم لَكِن أي إنجازٍ سنحقِقه مِن موتِنا بلا نتيجة تُذكَر..."

أحسّ الثَّلاثة أنّ الشمعة التي اتقدت بشرارتهم آنذاك ذابت واحترق فتيلها أجمع، انطفأتِ الشَّرارة التِي كانت مُتقِدةً، الآمال التي بنوها لِتوهِم تَحولت إِلى حُطام، لم يتبقّ منها سوى الكلمات، كأنَّ عاصِفةً قد مرت من هنا... ريحٌ عاتِية سببت كارِثة، لَكِن ما مرَّ مجرد عاصفة مِن الكلمات.

- للكلمات قوةٌ، ففي حين هي قادِرة على بناء آمال لدى أشخاص، هِي قَادرةٌ على قهرِها لدى آخرين، كذلِك تصنع بالدُّول فكلمة تستطيع تشييد هَيبةٍ تَارِيخية لحضارات ستنشأ وتدوم لقرون، وفي المقابِل هي قادِرةٌ على إِسقاط مماليك، وإمبراطوريات كانت عظِيمة يومًا، لا تَستَهِينوا بالكلمات.

رد دانيال ثمَّ أردف يقول: صدقت يا عم نحن هنا بلا حولٍ ولا قوة، لا نملك شيئًا للقِتال سوى الإِرادة، وبعض من كلمات الشَّجاعة التِي لن تغيِّر شيئا مِن الواقِع، فالقول وحده لا يكفِي دون فِعل، لِذا وجب علينا السَّعي نحو هدفِنا دون تَوان، فالسُّبل كثيرة، فلو أُغلِق بوجهِنا باب ستُفتَح أبواب أُخرى، وَإِن لَم تَتوفر سَنصنَعُها بِأَيدِينَا.

- وكيف سيكون ذلك يا صغير؟ هل ستُخبرني أنك ستُسقط دول الحلفاء ببعض صيحات الشجاعة؟

- كلّا، ليس هكذا يا عمّ، ألَّا توجد الخِدمة العسكرية؟ سَنخضع للتَّجنِيد بِرِضانا، هُناك مَسؤولون فِي كُل مِنطقة من ألمانيا يَقومون بِتجنيد الشَّباب وضمِهم للفيالق والكتائب العسكرية ويتكفلون بأمرِهم، يمكننا السّؤال عنهم ومِن ثَمَّ سننضم للفيرماخت وندافِع عن أرضِنا.

عاد الأمل مِن جديد، وارتسمت إشراقةٌ في وجوه الشَّباب، سَرت الدّماء تغلي بِشراييهم، غضبًا وحِقدًا على الغاصبين لأَرضِهم...

- لَكِن يَا أبنائِي الأمر خطير وَقد تكون نِهايته موتًا، فَهل أنتم مُتأكِدون مِما سَتُقدِمون عَليه؟

رد الشّباب معا: بِكل تأكيد..

-هل أنتم مُستعِدون حقًا لِأن تذرِفوا دِماءكم فِي سبيل أَلمانيا؟

رد دانيال بِكل ثقة وثبات: أن نموت فِي ساحة الوغى أَهون من الموت هاربين فِي جُحورِنا كالفِئران.

همهم الرّجل، عَمّ الصّمت فترة مِن الزّمن، أخذ تنهيدةً طويلة ثمَّ قال:

- إذن حُسم الأمر، انتفض الرَّجل واقِفا من مكانِه: لقد

استحققتم أمرَ الانضمام للجيش العسكري، سيبدأ تجنيدكم من يوم غد، كونوا مُستعدِين.

ارتسمت الدّهشة على وُجوه الثَّائِرين والتفت بعضهم إلى بعض مُتسائلا، ما الذي يقوله؟ من حضرته حَتى يَتفوه بِكلِماتٍ وَاثِقةٍ هَكذا؟

- أووه نسيت أن أُعرف بنفسي أنا الملازِم الأول جاكوب فِيشر، من القوات البرية، المجموعة الأولى بانزر، وَأنا هُنا مِن أجل ضَم الشّباب للجيش وَتجنِيدهم، وَقد أبهرَتني شجاعتكم والإرادة الـتِّي تَملِكونهـا، سَـتكُونون ذَوي فَائِـدة كَبِـيرة بِـلا أدنى شك، خَاصة أنت أيُّها الشَّاب وَأشار بإصبعه لِدانيال..

- أنا!

- أجل أنت لديك روحٌ قِيادية، سَتكون ذا شأنٍ عظِيم بِلا أدنى شك.

اِندهش الشّباب وغرَّ البعض مِنهم فاه...

- لَقد تَخطينَا أَول خُطوة يا دانيال، دِيفيد سَنَكون ذَا فَائِدة، كان هَذا ألبارت، ثُمَّ أتّمَ كلامه سَنُقاتِل سنُعِيد الاِعتبار وَالمجد لوطننا.

تَوجّه دانيال بِنظره لِصديقيه وابتسم أجل، ثُمَّ التفت للملازم وَقال: متى سَنذهب إذن، متى نَلتِحق بالجيش؟

- لا تتسرع أَيُّها الشَّاب لِتهدأ الأَجواء خَارِجًا وَسَننطلِق، أظن أنّه لا يُمكننا السّير تحت القصف، على الأَرجح سيكون مَع بزوغ الفجر، كونوا على استعِداد.

أجاب الشَّباب بالإيماء، ثمَّ اجتمع الأصدقاء الثَّلاثة بعد صيحاتٍ وهتافاتٍ أطلقوها، وشِعاراتٍ أنشدوها، وأخذوا يتبادلون أطراف الحِوار، ويتناقشون حول مصيرهم، في حِين تفرق الآخرون إلى مجموعات تتكون ما بين شخصين إلى ثلاثة.

مَضت السّاعات، غط البعض في نَومٍ عَمِيق وَآخرون يتلون صَلواتِهم، وهُناك من ظلَّ يَقِظًا طِيلة الليل يُفكِر فيما آل له الوضع، وَكيف ستكون حياته، منهم من سيترك خلفه عَائِلةً، من سيرعى شؤُونَها مِن بَعده؟ مَن يتكفل بإعالتِها؟ تَراكمت على البَعضِ الهموم، وَرَسمت الأحلام السَبِيل لآخرين...

حَلتِ السَّاعة السَّادسة صبَاحًا وَفِي خضم ذاك الصَّمت...

- لَقدِ اِنتهت الغارة على ما يبدو، استيقظوا، كسر الهدوء صوت دِيفِيد، لَقد عَمَّ السُكون الأرجاء خَارِجًا.

وَقف دَانيال مُصرِحًا سَأَتَفقد الوَضعَ وأُعلِمكم بالأَخبار، لَا داعي لأن نُوقِظ الآخرِين قَبل أن نَتأكد.

لَا تَذهب الأمر خطِر خَارِجًا، انتفض ألبارت مِن مَكانِه، لا نَدرِي ما الحال، لَكِني أفضِل أن نبقى هنا،

- سأذهب وأرى وَإِلَّا لن نَعرِف أبدًا يا صدِيقي..

لِيرُد بَعدها ألبارت بعد أَن أخذ نَفسًا عَمِيقًا سآتِي مَعك إذا، الوَضع لَيسَ آمِنًا مائة بالمائة..

- أنَا أَيضًا سُأرافِقكما، لِنذهب معا..

- حَسنا هَيا إذن...

مشى الأَصدِقاء في هُدُوء نَحو أحدِ المَخارِج، وما إن بَلَغوه حتى اِندَفع دَانيال خَارِجًا، مُلتَفِتًا إلى صَدِيقيه، اِبقيا في الداخل لاَ تلحقا بي حتى أتأكَدَ مِن أمان المِنطَقة...

- كُن يَقِظًا ولا تتَصرف بِتهور، رد ألبارت مُحذِّرًا صدِيقه...

- أعلم لا تَقلق عليّ...

استدار دانيال مواجها وجهي صديقيه بِظهرِه، وكُلُّ ما يَتذَكَره صَدِيقاه أن سَمِعا صَوتَه بَعد لَحظات وَهو يَقول الوضع مُستَقِر، ومَا إن همَّا بالخروج، إذَ بِه يصرخ تَالِيًا مُحذِرًا عُودا إلى الدّاخِل، لا تَأتِيا، لَكِنَ ألبارت وَاصل المَسِير أبصر صَدِيقه بَعِيدًا لِيتَعالى صَوت هذا الأخير مَرةً ثَانِية لا

تَخـرج عُـد إِلى الـدَّاخِل أَيُّهـا المجنـون لَكنـه لـم يتَوقـف بَـل واصل سَيره، اندفع دانيال بِاتجاه ألبارت رَاكِضًا صَارِخًا، تَلَاها صَوت طَائِرة تُحلِق فوقهما قفز دانيال على صديقه وَدفعه بَعِيدا وما إن هـمَّ بالكلام فإِذا بصَوت انفجارٍ أمامهمَا مزُوج بِصرخةِ الأَلم يُخرِسه...

لَحظات فقط مَضت، كَأن الزمن تَوقف فِي تلك اللحظةِ بِالـذات وتحـت نَـاظِري ألبـارت، شَـهِد بِـأمِ عينيـه لَحظـة اصطِدام القنبلة بالأرض وَمِـن قُـوة الانفجـار هـوى أَرضـا فِي حِين تناثر جَسد دانيال واِكتست التُّربة بلون دِمائِه فتزينت وبِهـا ارتـوت، لِيـصيح بعـدها بِكـل مَـا أوتِي مَـن قُـوةٍ بِاسـم صَدِيقِه:

دانيااااال.....

لَقد ضَحى بِنفسِه ليُنقِذه...

الفصل الثاني

دانياااااال...

اِستفاق ألبارت مِن فِراشِه يُردِدُ اسمَ صَدِيقِه، وَراح يَهِيمُ فِي الغُرفَةِ جِيئةً وذَهابًا، وَحِين انقطَعت بِه السُّبل اتصل بِي، فَتحتُ السَماعة سَائِلًا مَنِ المُتصِل، لِيرد مِن الجِهة الثَّانِية للاتصال صَوتٌ يَرتَعِشُ خَوفًا، إنَّه أنا يا دُكتور، ألبارت...

مَا الذِي يَحصُل مَعك يَا بُنَي؟ إنَّها الخامِسة صَباحًا أليس الوقت مبكرا بعض الشيءِ؟

- لا أعلم، لا أعلم يا دكتور، إنّه في رأسِي يَتَردد، لَقد بَدَأ مِن جدِيدٍ وَيَأبى أن يتبدَد، وأخذ يروي لي ما رآه بصوت متقطع، وما إن فرغ حتى أجهش بالبُكَاء، كَان الأَلمُ بَادِيًا في صوته، الحزن يعتَصِر قَلبَه، الوهم يأسِر عَقله، لَا يستطِيع التَّفكير في شيءٍ آخر عَدا الحرب.

حاولتُ مُواساته جاهدا: إنَّه مُجَردُ كابوس، لقدِ انتهت الحرب منذ سنة وَعَادت الأمور إلى نِصابِها، لقد عمّ السَّلام مِن جديد.

- لَكنهم هنا، الطَّائِرات،الغارات،إنّها هنا فِي رأسِي، الأمور ليست كما كانت، لَم تعد إلى نِصابِها، أين أصدِقائي أين.. أين.. أين دانيال؟

أَحسست بِرعشةٍ تَسرِي فِي جَسدِي لَم أتحمل ذَاك الألم الذي يمر به، أَحسست بِالعجز أَمام مُعاناتِه..

- لا تَبقى غَارِقًا فِي المَاضي فهو يَستنزفك من الدَّاخِل، يُرهِقك، يُتعِبك حَتى أنَّه نال واستحوذ عَلى تَفكِيرك، ارمه بعيدا، كي لا يبقى ذاك الجرح يتآكل أكثر، فيزداد عُمقًا، اشرب دواءك وعد للنّوم،وَتَعال إلى عِيادَتِي غدًا لِنَتبادل أطراف الحدِيث علّنا نَصِل لإلى حلٍ مَعا، ولِنرى ما يمكننا فِعله يا بني.

- لكن...

دون لكن، افعل مَا قلته لك، سَيزول لَا تَقلق، وَأغلقتُ الخَط فهذا كلّ ما كان بوسعي فعله...

- لَكِن كُلّ شيء يَبدَأُ حِينَ أَنام...

تَرنح ألبارت واستند على حائِط الغرفة، فتح الدُّرج واستخرج عُلبة الدَّواء، وضعها أمام ناظريه، وَراح يتخبط بين أفكاره، بين تناوله وَالامتناع عنه...

أخذت الأفكار تتقافز في مُخيلته أكثر مِن عشر دقائِق ولم يَصِل لِحل.

أصوات القنابل تهوي ترتطم بالأرض وَتنفجِر، طائرات العدو تُحلِق تتربص بِكل حَركة مِن كلِّ جانب، ثُمّ صوته يُردِد صارِخًا باسم صديقه الرّاحل:دَانيااال...، وتسلل لمسمعه صوت ضحك صادر من العدم...

مَن هُناك؟ أين أنت؟ اخرج، اخرج أيُّها اللَّعِين، لِم تَعبَث بِي؟ أَرجوك تَوقف أيُّها الحقِير، التفت يمنة ويسرة لعله يُبصر شيئا يقوده لمصدر الصّوت، لكن بلا جدوى لا أثر لأي كائن كان..

وَبَعدَ مُحاولاتٍ مِن الصُّراخ تسلل الخوف إلى قلبه، هل أصابني الخرف والجنون؟.

استحوذ الفشل عليه وخَرَّ جالِسا عَلى سَرِيره، لَكِنّ الصَوت لَم يَهدأ بَل تَردد وَتردد، نال مِنه التَّعب انحنى وتناول دواءه، اعتدل في فِراشِه وغطَّ فِي نَومٍ عَمِيق...

****

- دانيااااال...

خَرّ ألبارت على ركبتيه بِجانب الجزءِ المتصل برأس

صَدِيقه، واندفع ديفيد بِاتجاهِه بعد أن سَمِع دَويّ الانفجار وصرخات ألبارت الـتِّي تَلتها، ما إن بلغ موضع الفقيد ردد لسانه بصوت مرتعش وكلمات متقطعة: كَلَّا كَلّا غَير مَعقول، لَيس أنت يا دانيال...

انحنى ديفيد بِاتجاه جُثّةٍ صَديقه الذِي كان قد فارق الحياة، تَهافت جَمعٌ مِمن كَان معهم داخِل الملجأ، وأخذوا يَشدون كِلا مِن الشّابين، وَيحمِلونهم عَلى الوُقوف وَالعودة إِلى الدّاخِل، تَراجع دِيفيد لَكن ألبارت كَان جسدًا بِلا روح، مَاتت الحَياة فِي عينيه بَعد هذا المَشهد، حمِله أحد الرّجال، وكُلُ مَا كان يتردد على مَسمعيه: أنا السَّبب، أجل أَنا، وأطلق ضَحكة مِلؤها ألم، أنا، أنا، ما كان عليَّ أن أُعارِض ما قاله وبَادر نفسه بِاللَّوم والعِتاب..

بقي على هذه الحال فترة من الزّمن.

تَقدم الملازم مِن ألبارت مردّدا: لَقد مات وانتهى، لن يُفِيدك لوم نَفسِك فِي شيء، ولن يُعِيد النَّدم صَدِيقك، أجل هِي خَسارة لك، لَكِنها خَسارةٌ لِي فَقد فَقدت لِتوِي شَابًا كَان لِيَكون ذَا فَائِدة كبيرة، وعضوًا فعالًا لِقلبِ الموازِين وَتغيير نتيجة هذه الحرب، لِتكن على الأقلِ الآن مِثله، وعِند حُسنِ ظَنِّه، كن سَببًا فِي تَحقِيق حلمه بِخدمة هذا البلد

وَالمساهمة فِي تَحرِيره، استلم الشَّمعة بَدلًا عنه الآن، انهض ولتنتقِم لِصَدِيقِك ولتأخذ بثأرك.

نظر ألبارت باتجاه الملازم نظرة احتقار، حدّق فيه بإمعان ثمّ تجرد من صمته وعزلته وقال: أهذا هو همّك هه الحرب، للتّو سقط أحدنا ميتا وأنت تتفوه بهراء مضمونه لو لم يُردى قتيلا لكان أحد أسباب الانتصار..

- أعلم، ألمك كبير يا بُني، ليس لي الحق في لومك، لكن لتنصت لكلامي الآن ولتُرسّخه في ذهنك ولتحفظه جيدا، الأمر ينطبق على الجميع هنا والكلام مُوجّه لكم أيضا: في ساحة القتال يسقط الكثير من العساكر ضحايا، صديق، أخ، عزيز، أب، ابن، لا يُمكننا التّوقف لدى كلّ روح نفقدها، لنجلس أمامها ونذرف عليها الدّموع، إن كنتم ستتوقفون لرثاء قتلاكم فليس لكم عمل في صفوف الفيرماخت، مكانكم في البيوت والكنائس حيث يُمكنكم ذرف الدّموع وأداء صلواتكم والتّقدم بدعواتكم للرّب والاعتراف بذنوبكم في حضرة القس، عسى أن يتم تطهير هذه الأرواح المُدنسة منها.

عمّ الصّمت بين الحاضرين وأعادوا ضبط حساباتهم، أمّا ألبارت فلم يتقبل الفكرة بداية وواصل رثاء صديقه

الرّاحل، لترتسم في مُخيلته صورة دانيال وهو يبث الشّجاعة والعزيمة في قلوبهم ويحثهم على الالتحاق بقافلة المُناضلين، عاد على إثرها ألبارت لِوعيه، حاول استجماع نفسه، ولَمّ شَتاتها..

نادى فيشر في الثَّائِرين لأجل الاستعداد: سننطلق بعد ساعتين مِن الآن، لِتقوموا بِتوديع أهلكم، وَلتحضِّروا مَا تَحتاجونه، فقط المهم المهم، فكثرة الأمتعة تُعِيق المسير.

التفت دِيفيد لِصدِيقه وقال لِنستعِد نحن أيضا، ولنَقم بالواجِب اتجاه دانيال قبل انطلاقِنا، لِنُكرِم جسده، لِنغمرها فِي تراب الوطن لِيحتضِنه هو بعد الآن.

قام الشّابان بِكل ما يجب مِن مَراسِم الجنازة التي حضرها الكثيرون، وبادلوا رَفِيقيه بالتَّعازي..

انتهى كل شيء وانصرف الجميع، بَقِي ألبارت ودِيفيد بقرب قبر دانيال وبِجانِبهما الصَّبِيُ كِيفن، فِي حين كان الملازم والبقية يحزمون أمتعتهم استعدادا للرّحِيل..

- تَمَّ إيداع جثتك لمُستقرِها، ووجدت روحك سَبِيلها، رَعاك الرَّب واجتباك في جنات الخلد بين الصالحين، كانت دعوةً مِن ذو الثّمان سَنوات، رَفع الثلاثة أيديهم ورددوا صلواتهم ودعاوتهم على روح الفَقِيد، وهمّوا بالالتحاق بالثّوار.

التفت الملازم للصبي: إلى أين تَحسِب نفسك ذاهِبًا أيها الصغير؟

- سأُرافِقكم...

- ماذا تقول؟ ههه هل تَحسبِنا ذاهبِين للحضانة؟ نحن مُتجِهون لساحة المعركة، ستلقى حتفك، عد إلى منزِلك رُبما وَالِدتك تبحث عنك؟

لِيرد أحد الرّجال: سيدي الملازم..

التفت إلى المتحدث فأبصره يعضّ على شفتيه وهزّ رأسه يمينا وشمالا ثمّ طأطأه..

فرد الملازم: ماذا هُناك، هل أخطأت في شيء ممّا تفوهت به؟

-لَيس لَدَي أَحدٌ لِيفتقدني، سَلمتُ أَهلِي للتُّراب، رددها الصّغِير بِكل هدوء وثبات ولم يَرِّف له جفن، اتجه فيشر بنظره للصّبي ليُواصل هذا الأخير كلامه: سأكون الأفضل، لأن الرئيس هِتلر سبق وقال: " لا تتحدى شخصًا لا يملِك ما يَخسِره " وأنَا هُنا تنطبِق عَليَّ هَذِه المقولة، لم يَعد لدي شَيءٌ لِأخسره فِي هذِه الحَياة..."

كان هذا الرَّد كافيا، خرس الملازم جاكوب على إثرِه، ثمَّ نَادى في الجموع: لِننطلق يا رِجال.

***

مضى الشَّباب في سَبيلهم، بَلغ عَدد المُنضمِين أكثر مِن مائة وعشرين شخصًا، وفِي كل مَحطة أو قريةٍ مروا بِها انضم لهم نَفرٌ آخر، حتى بلغ العدد خمس مئة مُنضما، مَضت الأيام والأسابيع، وأصبحت أشهرا، تمَّ فِيها تجنِيد كل من التحق بالعسكرية، أَتقنوا خِلالها القِتال وحمل السِّلاح، فِي حِين كان كِيفن يعمل عَلى نَقل الذّخيرة بين الجنود، نَظَرًا لِصغر جسمه وخِفته، كما تدرب على الحِوار والتَّلاعب بالكلمات لَعلَه يُصبح مُخبِرًا أو جاسوسًا يُعتَمدُ عليه فيتسلل بين صفوف الأعداء، لكن فترة وجوده لم تدم فقد تمّ إرساله إلى إحدى العائلات النّبيلة لتهتم بأمره، رفض المغادرة في البداية، لكن التف حوله ديفيد وألبارت وأقنعاه بذلك القرار وأنّه عين الصّواب.

التقى ألبارت وَدِيفيد خلال هذه الفترة بأصدِقاء قُدامى لهم...مولر، سيمون وهَاس، ومِن الصّدفة أن كانوا في نفس الفرقة، القوات البرية الجيش رقم ثلاثة عشر، تناقلوا الأخبار بينهم، وللحظ العاثر أن سألوا عن حال دانييل وما هو

بـصدد فعلـه في الآونـة الأخـيرة، مَـا أعـاد الـشَّابين بالـذَّاكرة للواقعة الأليمة..

-لقـد لَـقِيَ مَـصرعه، كانـت إجابـة دِيفيـد، في حِـين الـتزم ألبارت الـصَّمت، رَفـع الثلاثة أيديهم وخطوا شِـعار الصليب مُرددين، كَان المَسِيح لِروحه من الهادين، ورتلوا بعضا من الإنجيل، وَدعـوا لـه بالرَّحمـةِ والمغفِـرة، تـساءل الثلاثـة عـن موته؟

فروى لهم دِيفيد مُجريات الحادثة بِكل حذافِيرِها...

بعـد أن فَـرغ تعاهـد الخمـسة عـلى الانتقـام لـه، وَأن يَستمِروا عـلى نهجـه، عَـسى أن ترتـاح روحـه في مـضجعِها، وَتَواعدوا أن يحمِي بعضهم الآخر.

***

خاض الأصدقاء العديد مِن المعارِك، كان لهم فِي بعضِها أن أَصابوا وَفِي البعض الآخر أن خابت رَصاصاتهم، جـروح، خُدوش وإصابات كَثِيرة تَعرضت لها أَجسادهم ومن حظهم أن دام تجمعهم، اعتادوا القتال جنبا لِجنب، وَرُبما لم يَخطُر فِي بالِ أحدٍ منهم أنّ الموت قَرِيب ويتربص بِهم فِي كل لحظة تَمر.

***

بَينما كان الأصدقاء جَالِسِين مُجتمِعِين بأحد الخنادِق بالقرب من القاعدة العسكرية، وما بين الثّامنة والتّاسعة ليلا، كان الشُّبان يَتناولون وجبة العشاء، ويَتبادلون أطراف الحديث أثناءها، الهدوء يَعمُّ المكان، لَا وُجُود لأي حركة مشبوهة، مَضت بعدها ساعتان أو ثلاث بدأ التَّعب ينال من العساكِر، وَأخذ النَّوم يتسلل لِجفونِهم الوَاحِد تِلوَ الآخر، وكالعادة يسري النّظام المُعتاد فيَتناوبون على الحِراسة، دَورِيات تُراقِب وَتتفقد الأطراف والجوانِب وعساكِرْ تَمركزوا فِي مَواقِع مُخصصة.

حَلت السَّاعة الثَّانية صباحًا، حَان الدّور عَلى دِيفِيد فِي الحِراسة، تَموقع فِي مَركزه، وَأخذ يتابع بِعينيه الأنحاء، مَضت نِصف ساعة أحس خِلالها بالأمان، سرى شُعور الرّاحة بِجسده، ثمَّ تسلل مِن خَلفِه ظِلٌّ لِشخصٍ مُسلح...

اِلتفت إليه وقال: ألست نَائِمًا يا ألبارت؟

- أَنام !

- أجل، استرح... فلا ندري ماذا سيكون فِعل العدو؟ على الأقل نَل قِسطًا مِن الرَّاحة كي تكون في حَالٍ جَيدة وَبكامِل قِواك إِن حَدثَ وَتَمّت مُباغتَتُنا، لِنكن مُحتاطِين ضِد أي احتمال.

- صَدقت يا صدِيقي لَكني لَست متعبا، لم أستطِع النَّوم.

- لِم! ألست بِخير!

- ليس كَذِلك لِكِني تَذكرتُ دَانيال، عُدتُ بِالذَّاكِرة لِكل ما حَصل ذَاك اليَوم، كَأنّه كان بالأمس، أَتذكر دانيال وَهو يَبُثُّ فِينا الأَمل وَيُشَجِعنا على القِتال، أذكر كَلماته وَاحِدةً بِواحدة، تتردد بِرأسي، تتبعها آخِر الجمل التِّي تلفظ بِها حِين حَذّرنا مِن الخروج لَكِني أبيت.

أَتذكر رَكضه اتجاهِي وَدفعه لِي والانفجار النَّاجِم عن القنبلة التِّي هَدمت حياته وَقلبت كُلَّ شيء، كُنت لِأكون مَكانَه الآن لَكِنه أنقَذَ حَياتِي، اللَّعنة عَليّ وعلى هذه الحرب، الأمر واضح للعيان، الذنب يقع على عاتقي، أنا سبب الفاجعة التّي حلت به.

- لا تَلُم نَفسك يَا صَديقي سنَنتقِم مِن العدو، وَسنبنِي تاريخا وَافِرًا بالانتصارات، ستتحرر ألمانيا وَنحقق هَدف دانيال.

- بالطبع سنفعلها يا دِيفِيد.

- الآن لِتعد إِلى الدَّاخِل لتنال قِسطًا مِن الرَّاحةِ يَا ألبارت.

- حَسنًا، هه كُن يَقِظًا وَإِياك أَن تنام أنت، فأنتَ حَارِسنا

الليلي.

- اعتمِد عَلي...

استدار ديفيد لِيعُود للمُراقبة، ومَا إن همَّ ألبارت بِالعودة للـدّاخِل، إذ بِـدوي رصاصـة عِيارهـا 54 ملمـتر تنطلِـق مِـن فوهـة سِلاح موسِـن نَاغـان اسـتدار ألبارت عـلى إثرِهـا نَاحيـة صـدِيقه، فـإذ بِـه يُبـصرها وهي تَخـترِق رَأس دِيفِيـد، مـا أَدى لتناثر دِمائه فِي كل مكان، حَتى أَنَّ بعضًا مِنها قد تناثر عليه، تَجمد فِي مَكانِه وَلَم يَقوى على الحِراك.

كَأنّه يرى الموت وهِي تَسرِق روحًا مِن هذه الحياة لِأول مـرة... الفـرق واضِـح، أن تـرى أحـد أصـدقائك أو فـردًا مِـن عائلته وهـو يَهـوِي جثةً هَامِدة أَمام ناظِريك وما في وسـعك شيء لتفعله أَشدُ وَقعًا مِن أن ترى النَّاس وَهِي تموت.

مَا هِي إِلَّا لحظات حتى انطلقت صافِرات الإنذار وعلا صراخ ألبارت باسم صدِيقه...

فـتح فِي هـذه اللَّحظـة عَينَيـه وَصـرخ عاليـا دِيفِيـد وهـو يتـصبب عَرَقًـا، اغرورقـت عيناه بِالـدّموع، وَأخـذَ يُفِكـر فِيما شَـهِده هـذه الليلـة مِـن كَـوابيس، كُلها وَقـائِع كان قَـد عاشَـها وَمَرت بِهِ سَلفًا، تَرسـخَت فِي الـذاكِرة وَأبت أن تَـنمَحِي مِنهـا، باتت تُشكِل عَائِقًا يَمنعه مِن المُضي قُدمًا فِي حَياته، فَقد أَبى

أن يتقبل أنَّ كل هَذا حَقِيقة لا يُمكِن إنكَارُهَا، فَأصبحت هَلوسةً وَمَرضًا نَفسِيًا يُؤثِر عَليه بالسَّلب...

نَظر بعينيه يتَفقد أَرجاء غُرفَتِه، ثمَّ التفت لِساعتِه فإذا بِها السَّابِعة وَالنِصف صَباحًا، تَذكر اتصاله بالدّكتور ودعوته له بالحضور، نَهَض مِن فِراشِه، اتجه نَحو الحَمام كي يَغتسِل ويُغيِرَّ مَلابِسه استعدادًا لِمُقَابَلَة طَبِيبه...

كَان يَمشي وَهو يَترنح يَمنةً وَيسرة، أَشبه بِسِكِيرٍ أفرط فِي الشُّرب...

أخذ يَمسح رأسه وَوجهه بِالماء، ثمَّ مَضى نَاحِية المطبخ لِتنَاوُلِ فطورِه، أخذ يُعِد الطّاوِلة، تَكونت وَجبته من الجبن والبيض المسلوق مع بعض الخبزِ والمُربى...

***

يَقطُن ألبارت فِي شقة تَقع في الطّابق الثَّانِي لإحدى المَبانِي بِحي برينزلاوير بيرغ في العاصِمة، حَيث كَانت تتألف شقته مِن ممر يَمتد مِن المدخل مُرورًا بِالحمام وَالمطبخ على جَانِبيه، توسطت أحد جدرانِ المطبخ نَافِذة تُطل على الجهة الخلفية للمبنى، تكوَن مِن طَاولة، مَوقِد لِلطبخ وَثلاجة صغيرة، ينتهي الممر بِغرفةٍ بسيطة للنوم تحوي سَريرا بِجانِبه مكتبٌ بَسيط الصنع مِن الطراز التقليدي بِه

ثلاث أَدراج، احتوى أحدُها على الأدوية التِّي يتعاطاها، وَفِي الثَّانِي إنجِيلاً وصَلِيبًا، أمَّا الثالِث فكان مُغلقًا بِقفل مُحكم، فوق المكتب شمعدان نحاسي مخصص لِحمل ثلاث شموع وأمامه وُجِد كرسيٌ خشبي بسيط الصُّنع، يَعتليه هَاتف مِن طِراز أريكسون، خِزانة تَحوي مُستلزماته الخَاصة كالملابِس، الكُتب وحتى ألبومًا للصور كما احتوت الغرفة على نَافِذة تُطِل على الشَّارِع...

بعد أَن فَرِغ مِن فَطوره أخذ يُغِير ملابِسه، ارتدى قميصًا رَمادِي اللّون، سِروال جِينز ذو لون داكن، ومِعطفًا وحول رَقبتِه وَضع وِشاحًا لِيَقِيه من البرد، إذ كانت البرودة فِي أَقصى دَرجاتِها آنذاك، اِرتدَى حِذاءه، كَان كُل شيء أسودًا فِيه حتى جَوارِبه عَدَا قميصه ذاك وَبشرته...

خَرج ألبارت مِن شَقتِه، أغلق البَاب مِن خَلفِه بِإحكام، نَزَل إِلى الشَّارِع، كَانت الأمطار تَهطِل بِغزارة، بدا له صوت ارتطام القطرات بالأرض تِباعًا بطيئًا وعاليًا فِي نفسِ الوقت، رَفع عَينيه إلى السَماء، تَذكر حِين كانت سماء الرّايخ تُهطِل مَوتًا ودَمارًا يحملها سيل القنابل فِي تلك الغارات، سرت رعشة فِي بدنه أجمع، مَرت صورٌ خاطفة أمام عينيه، حاول مُقاومتها فطأطأ رأسه واتجه بنظره إلى الأرض، كانت الطَّريق عِبارةً عن سيلٍ مِن المِياه جار بِاتجاه فَوهات المَجاري،

هرب من الغارات لِيرى بدَل المِياه سيل الدِّماء التّي اكتست بها أرض ألمانيا فِي تِلك الحِقبة الزَّمنية ما بين 1942 إلى غاية 1945 حِين بلغت الحرب ذُروتها، تبادرت لِذهنه دِماء دانيال وجثته المترامية، تلتها دماء دِيفِيد المتناثرة، ارتجف هذه المرّة جسده أجمع، حَاول الفِرار مِن هذا المنظر، رفع يده وأوقف سيارة أُجرة مِن نوع فورد، ركب العربة وجلس في أحد المقاعد الخلفية...

- مَا الوِجهة يا سَيدِي؟

لَكن ألبارت لم يرد بل استحوذ عليه الصَّمتُ...

- سَيدِي، إلى أين آخذك، هل تَقصِد مَكانًا مُحددًا؟

لَكِنه لم يرد بل نظر إلى السّائق نظرة يكتسِحُها البرود، كأن كل شيء فِيه قد مات...

- سَيِدِي؟؟

ليرد بعدها كاسرا صمته: أجل، خُذنِي إلى عيادة الدكتور أدريان كراون لو سمحت، إنَّها على بُعد شَارِعين مِن هنا باتجاه الشَّمال.

- حسنًا، وانطلق السّائق نَحو الوِجهةِ المُحددة...

***

كانت تَبعد العِيادة مسافة قدرها 5 كيلومتر، فِي العادة يَستغرِق الأمر حوالي عشرِين دقيقة نَظَرًا لِلزّحمة المرورية، إذ لَطالما كان حي برينزلاوير بيرغ يَعج بالأشخاص باعتباره أحد الأحياء القديمة فِي ألمانيا ومن أعرقها ما أكسبه أهمية بالغة وجعل منه وجهة مفضلة، وَلِحسن حظهم أنَّ الطّقس سيء ما قلل من الازدحام، أخذ الوقت منه أقل من ربع ساعة، كَان فِيها ألبارت غَارِقًا فِي تَفكِيره، يرتجِف خلالها خَوفا...

نَظر إليه السَّائِق مِن خلال المرآة الأمامية للسّيارة، ثُمّ سأله: "هل تشعر بالبرد أيُّها السِّيد؟ "

- لا أظن أنِّي أشعر بِالبرد...

- لكِنك ترتجِف !

- أعلم مع ذلك لَا أشعر بالبرد...

- لكِن يا...

ألن تصمت، رد ألبارت بِحنق: لِمَ تسأل أساسًا؟ الأمر لا يهمك اهتم بعملك ولا تنشغل بأمور الآخرين...

رَد السَّائِق بِصوتٍ خافِت: حسنا، آسف عَلى إزعاجك يا سَيدِي...

نظَر ألبارت مِن النَّافِذة فرأى المشهد مرة ثانية فأغمض عينيه وَأسندَ رأسه لِلخلف كي يمتنع عن الرؤية...

***

- لَقد وَصلنا يا سيدِي.

- حسنا تَفضل أَجرك، هوّن الله عملك، ردّ ألبارت بأسلوب راق يُنّم على لطف، على فكرة احتفِظ بِالباقِي، نَزل ألبارت مِن السَّيارة واتجه نحو مدخل العِيادة فِي حِين بَقِيَ السَّائِق مَدهوشا، ثُمَّ انصرف لِعمله لِيوُاصِل يومه كالمُعتاد...

***

وَقفَ ألبارت أمام المدخل، اعتدل فِي وقفته، دَفع الباب بِهدوء وَتَقدَم إِلى الدّاخل وَنادى بِاسمِي: دكتور أدريان؟

فَإِذا بِشاب تَجاوز سِن العشرين، يَندفِع نَحوه بِهدوء لِيرد عليه مُرحِبًا:أهلًا بِك سَيِدي، طَاب صَباحُك، كَيف يُمكِنني مُساعدَتُك؟

- هل الطَّبِيب مَوجُودٌ هُنا؟

- أجل هُو فِي مَكتبِه رُفقَةَ أَحدِ المرضى، هَل تَحتَاجُه أَيُّها السّيد؟

- بِالطبع، حَتى أَنَّه عَلى عِلمٍ بِقُدُومِي، اتصلت بِه لَيلة أمس وَهو مَن طَلب مِني الحُضور إِليه صَباحًا، أَنا أَحد مَرضاه.

- حَسنًا سَأُعلِمُه بِقدُومِك، ما اسم حَضرتكم !

- ألبارت... ألبارت تيلي.

- يُمكِنُك الجلوس على أحد المقاعِد للانتظار.

تَقدَم الشّاب نَحو باب مكتبي، فِي حين هَمَّ ألبارت بِالجلوس، فِي نَفسِ اللَّحظة خرجتُ رُفقة زَبونِي، مُردِدًا: التزم بِالنّصائح الّتِي أمرتك بِها وبالدواء الذي أعطيتك إِياه وَستتحسن فِي القريب العاجل.

- شُكرًا أَيُّها الدُّكتور، سَلِمت جهودك لن أَنسى صَنِيعك هذا ما حيِيت، وانصرف الزّبون خَارجًا.

التفتُ لألبارت وَقلت: أهلا بِك، تَعال إِلى الدّاخِل وَسنتحدث.

نَظرتُ إِلى الشَّاب مرددا: إِذا جَاء أحدٌ آخِر أخبِره أنِّي مَشغول، فَلا داعِي أن يتِم إزعاجنا، هل فَهِمت يَا غِيرد؟.

- حَسنًا كَما تَراه مُنَاسِبًا سَيدي.

- لَو سَمحت هَلّا طَلبت لَنا فنجاني شاي؟

- سألبي الطلب في الحين...

أَمّا ألبارت فالتزم الصّمت، تَقدم نَحوي فِي هُدوء تام، دخلتُ المكتب يتبعني مَرِيضي، طَلبتُ مِنه الجُلوس على مَقعدٍ أمامه طاولة، فِي حين جلستُ أنا على كرسي في الجهة المُقابلة له...

- صباح الخير يا دكتور، أتمنى أن لَا أكون مصدَر إزعاجٍ لك، وأَعتذِر على اتصالي في وقت مُتأخر من الليل...

- لا عليك يا بُني، هَذا عملي وَمصدر رِزقِي، فَكيف لِي أن أنزعِج مِنك، إِلى جَانِب ذلك أنت أحد زبائني الدَّائِمين، رَاحتُك تَهمنِي.

- سَلِمت يا دكتور لا أدري حقًا كَيف أُوفِي حَقك؟

- لَا عَليك يا ألبارت، عَلى كُلِّ حَال، عمَّ سنتحدث الآن؟

- أَلم تَقل أنَّنا سنتكلم عن وَضعِي؟

- أجل قُلت لَكِن لِنجعله يَتأخر حاليًا، لِنتحدث كَوننا صَديقين التقينا وَقُمنا بِحدِيثٍ عادِي، مَا الذي كنت ستتكلم حَوله؟

- لَو كنت أحد أصدقائِي، لسألتُك أولا عن حالِك ثمَّ عنِ الشَّاب الذي قَابلتُه عِندَ المدخل، كَونِي أَراه هُنا لِأول مَرة...

ابتسمتُ ابتسامةً خفِيفة، إذًا لِنبدأ حِوارنا..

- أَنا بِخير الشُّكر لِلرَّب، فقط القَلِيل مِن ضُغوطات العمل وَأنا أكبر يومًا بَعد يوم، تَعلم كُلما ازداد الشَّخص وَكبُرَ فِي سِنه كُلَّما قَلت نِسبة تحمُله.

كَنت آنذاك قد تَجاوزت الخمسين مِن عُمري، رُبمَا بَلغت الحَادِية والخمسين أو أكثر، عَلى كُلٍ فقد كان اختصاصي الطِّب النفسي، مَرّت بِي حَالاتٌ عَدِيدة، زارني الكَثيرون مِمن شَهِدوا الحروب ومن مرّوا بتجارُب قاسية في حياتهم، لَكِن لَم يكن أحدٌ مِنهم ذو حالٍ مُستعصِية كحال ألبارت، لِذا فَقد حاولت مُعاملته بِطريقة خاصة، بِدافِع الإنسانية وَكذَا أخلاقِيات المِهنة...

- مَعك حَق يا دكتور، فالعمل يزدَاد صُعوبة على المرء كُلمَّا تَقدم بِه السِّن أكثر، الشُّكر لِلرّب أنَّك ماتزال بِصحةٍ جَيِدة وَتُواصِل عَملك بِكل إخلاصٍ وَتفان، نادرا ما نُصادف أشخاصا مثلك في حياتنا، يكون لهم تأثير إيجابي فيها.

دُمت بِصحتك هذه يا دكتور.

- سلمت يا ألبارت، أخجلت تواضُعي، وبما أنَّك كنت قد سألت عن الشّاب غِيرد، سأُخبِرك عنه هُو الآخر.

- أجـل أخـبِرنِي...واعتـدل ألبـارت في جلـسته اسـتعدادا للاستماع لما سأرويه.

فِي هذه اللحظة دَق الباب...

- لقـد أحـضرتُ مـا طلبتـه مِـنِي سَـيِدِي، كَان ذاك غِـيرد يستأذِن بِالدّخول...

رددتُ عليه: تَفضل يـا بُنَّي،أتانا وَهُـو يَحمِل صِينِية بِهـا فِنجانا الشَّاي، شَكرتُه...

نظـرتُ إِليه وَقلـت: خُـذ واشـتِرِي لَـك شَـيئًا لِتشربَه أنـت الآخر.

- لَكِن يَا سيدِي...

- دون لَكِن أنت تستحِقها.

رَد بِخجـلٍ وقـد اِحمـرت وَجنتـاه: أنـت تَغمُـرُنِي بِطِيبتـك وَكرمِك يا دُكتور.

- لو لم تكن تستَحِق لَما كانت هذه مُعاملَتي لَك يا بُني.

رد بالإيماءِ إِيجابًا ثمَّ أمرتُه بالانصراف، التفتتُ لِألبارت وقلت: أين تَوقفنا؟

- كنت سَتُخبِرني عـن الشَّاب، لكن قبل ذلك لم قمت بطلب الشّاي؟

- سؤال وجيه، لي غاية في طلبه، هل لديك اطلاع على بعض فوائده؟

- القليل فقط، ليس بالكثير.

ابتسمت ثم قلت: دعني أفيدك قليلا كوني من أهل الاختصاص، يُعد الشّاي من المشروبات الشّعبية التّي شاع وازداد الإقبال على استهلاكها في كل بقاع العالم، ونجد في مقدمة الطرح الشّاي الأسود الذي احتل المرتبة الأولى بين باقي الأنواع، يليه في التّرتيب الشّاي الأخضر" الأولونغ "، الشّاي الأبيض وفي الأخير نجد الشّاي من أوراق شجيرة الكاميليا الصّينية، وبشكل عام فإنّ الموطن الأصلي له "آسيا"، إذ بدأت زراعته في الصّين لينتشر بعدها في العالم نظرا لمّا له من فوائد، لكن ما يهمنا نحن هو ما له من فائدة على أعصاب الإنسان، فلطالما كان سببا في تهدئتها وسبيلا للاسترخاء، وتأثيره يختلف باختلاف نوع الشّاي، فقد يكون لخصائصه الطبية والعلاجية التّي يتمتع بها، وقد يكون عائدا لرائحته الزّكية أو لطعمه العطريّ، وكلّها تساعد على الاسترخاء فتعمل على القضاء على التّوتر لدى الشّخص وكذا تهدئة أعصابه وهذا ما أنت بحاجة ماسة له الآن.

- من؟ أنا؟

- أجـل، فقـد لاحظـت مـن حركـة عينيـك أنّـك مُتـوتر وخـائف نوعـا مـا، ومـن الهالـة الـسّوداء الـتّي خُطـت تحـت جفنيك فبلا أدنى شك كانت ليلة مليئة بالكوابيس، عسيرة وصعبة نوعا ما، أم أنّي مُخطئ؟

- معك حق يا دكتور أدريان، لم أنم جيدا، رأيت أشياء كثيرة، فتحت جروح الماضي التي أعادت لي ذكريات أليمة...

أخـذ يقُـصُ عـليّ مـا مـرّ بـه، يـروي لي عمّـا شـاهده هـذه اللّيلة بالتّفصيل، وما تبادر لذهنه من مشاهد الأمطار وسيل المياه وما تبادر لذنه حال رؤيتها، وما إن فرغ حاولت تغيير مُجريات الحديث فأخذت أتحدث عن غريد...

- هل تود أن تعرف قصته؟ فردّ بالإيجاب.

- فِي الحَقِيقـة لَـم أَكـن أعرِفُـه جَيِـدًا، كَـان أغلـب عملِـه تَوزيـع الجرائِـد مُقابِـل مَبلـغٍ بَـسِيط... ذات يَـوم وبَينمـا هُـو يؤدي عمله، ولَمّا بلغ باب منزلي اقتنيت جريدة مِنه، وأخذ الأمر على هذه الحال طيلة أيام، فَقررت التَّعرف عليه كَونِي أراه بِكثرة مُنذ فترة طَويلة، وَمـا شَـدّنِي إليه أكثر هـو مظهره البسيط، تَبادلنا أطراف الحديث، أحطت عِلمًا آنـذاك أَنَّ هـذا العمـل هـو مـصدر قُـوتِ يَومـه، وهُـو يتـولى أمـر عائِلتِـه المُكونة مِن ثلاثة أفراد، أخوه الذِي يبلغ الثامنة مِن عمره،

أخته التّي لم تتجاوز الأربع سنوات وَأمّه التّي كَانت طَرِيحة الفِراش نتيجة المرض، اجتاح السُّل جسدها بالكامل، فكان أغلب ما يُدِره عليه عمله مِن مال يتِم إنفاقه فِي الأدوِية، أخبرته أني طبيبٌ نَفسي لَكِني على اطلاع بِباقي الميادين، كوني عَمِلت مُسعِفًا وَطَبِيبًا في الحرب وبعد انقضائها اخترت هذا التَّخصص بالذات، اقترحت عليه أن أُلقِي عليها نظرةً فاحِصة، تردد بِحجة أنّه غير قادر على تسديد تكاليف الفحص، فأخبرته أن لا يقلق حيال الأمر سيكون مجانِيا وعلى نفقتي الخاصة، فَوافق على ذلك وقال: إذا لِأُكمِل ما بَقِي لِي مِن عمل لأتمّ جولتي المُعتادة يا سيدي ثمَّ نذهب للبيت.

فرددت: كما تراه مُناسِبًا يا بُني، انتظرته طِيلة اليوم لَكِنَه لم يَأتِ، فكرت فِي الأمر بِتمعن، رُبما نَسي، فقررت أن أتحدث معه غدًا حِين يَمر بِبيتي، لَكِن ذَلك لم يَحصل، يوم،يومان،ثلاثة ولَا أثر يُذكر للشَّاب، سألتُ عنه العامة فَأرشدوني إِلى مَكانِ عملِه، سألت عنه صاحِب المتجر فأَخبرَنِي أَنَّه قد قام بِفصلِه.

-ما السبب من وراء فصله؟

- وما السبب الذي يدفعني للرّد على سُؤالك أيُّها السّيد؟

- أجب عن سُؤالي وكفاك ثرثرة أكثر، ليس لديّ وقت كاف لأقضيه معك.

- هل هو أحد أقاربك؟ من حضرتك؟

- إن كان تعريفي بنفسي سيُجبرك على الرّد فلابأس.

- أنا الدكتور أدريان كراون، طبيب نفسي، الآن هلا أجبتني ما الدافع وراء طردك له؟

- أنا أعرفك أيها الدكتور، الكلّ يتحدث عنك وعن استغلال عملك للنّصب والاحتيال على الآخرين، خاصة مرضاك.

أمسكت بياقته صارخا فيه: أجبني والتزم الصّمت، لا يجب على العامة تصديق كل ما يُقال عن الآخرين، فأخذ يصرخ طالبا أن أفلته

"لن أفلتك ما لم تُقدم لي إجابات على أسئلتي"

فبدأ يتفوه ببعض الهراء ويتحجج بأنَّه كَان شابا كَسولًا، لَا يَقوم بِعملِه عَلى أكملِ وجه، كما أنَّه كَان يُنفِّر الزَّبائِن بِمظهرِه ذاك، فاعتلاني الغضب ورددتُ بِحنقٍ وغضب، وأمسكت بِصاحب المحل من ياقته: أتعلم أنَّ والِدته مَرِيضة وهِي بِأمسّ الحاجة لاقتناء أدويتها؟

- أجل أعلم أنَّها مَرِيضة لَكِن أمرها لا يَهُمني، هناك الكثير من المرضى في الأنحاء والكثير من الفقراء من يهتم لأمرهم؟ أخبرني أيُّها السيد المُحترم، تَهمُني شَعبية مَحلِي والأرباح التِّي يُدِرهَا عَليَّ وَفقط، أما الباقي فلا شأن لي به...

صَفعته دون وعي وَصرخت بِوجهه: هَل أنت بشرٌ أم ماذا؟ هل ماتت الإنسانِية فِي قُلوبِكم لِهذا الحد؟ أتُغلِق باب الرِّزق الوحيد له؟ من يعلم ما قد يَفعله إن لم يَجد البَدِيل؟ بِهذا تُرغِمون الصِّبيان على اللجوء للأعمال غير القانونية كالسّرقة والنّهب..

فرد بِتعجرف: عندها ستظهر حَقِيقته ومعدنه، سيتم القبض عليه وَبهذا يتخلص المجتمع مِن عَالةٍ كَانت مَوجودةً فيه يَومًا.

- أتسمع أُذناك ما تتفوه بِه؟ اللعّنة عليك، فلتذهب إلى الجَحِيم، أنت شَيطان تَلبَس هيئةِ إِنسان، نَظرتُ إِليه نَظرة بُغضٍ وكره، سألته عن اسمه ومكان سكنِه، لَكن بِلا جدوى كل ما تمكنت من أخذه مِن معلومات هو الاسم، ثم هممت بالانصراف...

- أتود لعب دور الشخص الطّيب في القصة يا دكتورنا، لكني لم أُعر ما قاله اهتماما، خرجت إلى الشّارع وَسألت

العامة عنه، الواحِد تِلوَ الآخر لَكِن لا فائدة، حين بدأت أفقِد الأمل تمكنت من الإمساك بِخيطٍ يَقودني له، لَكِن كان الوقت مُتأخِرًا حوالي السّادسة ونصف مساء، كانت أيام الشّتاء في تلك الفترة، لِذا قررت مواصلة البحث فِي اليوم التّالي، عُدت لِمنزلي، وحال ما وصلت وَجدتُه ينتظرني وقد مَلأت الدموع عيناه، سَألتُه بِعجل: ما بِك يا بُني؟ هل أنت بِخير؟ ما الذِّي حصل؟

كُلّ ما كان يُردِده فِي تلك اللَّحظة: " أمي.. أمي يا دكتور " كان صوته مُرتعِشًا، كَلِماتٌ مُتقطعة...

- اهدأ... خذ نفسًا عَمِيقًا ثمّ أخبرِني بِما يحصل، ما بِها هل أصابها مَكروه؟

أخذ نفسًا وبدأ بِالكلام: لَقد ازدادت حالها سوءً بسبب عدم تناول دوائها لِفترة، لم تعد تقوى على الحراك حَتى أنّه قد أُغمِيَّ عليها لِأكثر من مرة.

- لِم لم تتناول دواءها؟ سألت بلاوعي كان تسرعا مني ثُمّ أدركت الأمر.

اعتلت وجهه ابتسامةٌ زائِفة ورد بِنبرةٍ مِلؤها ألم: نَفِذ الدواء، ونحن لا نملك المال لشرائه، تمَّ طردي مِن العمل وهذا مؤسف، بحثت عن بديل لكن دون جدوى، حِين رأيت

حال والدتي اليوم، وضاقت بي السُّبل أتيتك قاصدًا أن تَقوم بِفحصِها لعلك تُساعدنا...

- لَا تقلق، سأفعل اللازم، انتظرني هنا سأُحضِر حقيبتي ونذهب لرؤية وَالدتك سويا.

- آسِفٌ حَقًّا يا دكتور، لا أدري بأي وجهٍ أتحدث معك الآن؟

- لا عليك يا صغيري، أساسًا لقد اقترحت عليك هذا من قبل لَكِنك لم تعد لي، فما السَّبب؟

- كُنت خَجِلًا ومُتردِدًا وفي نفس اليوم كرهت حياتي بعد أن تم طردي، لم أشأ أن أكون عِبئًا ثَقِيلًا عليك.

- ما الذي تتفوه به؟ لست عبئا علي، التزم الشاب الصَّمت ولم ينبس ببنت شفة.

أخذت ما يلزم، غادرت البيت، أغلقت الباب مِن خلفي بإحكام، واتجهنا نحو المنزل الذِّي يَقطنه، كَان جَلِيًا للنّاظِر مِن الخارج سوء المستوى المَعيشِي وتَدهوُرِه، سقف مُهترِئ، باب مِن الخشب القديم لَا يُغلق جَيدًا، أَمَّا مِن الدَاخل فحدِث ولا حرج، كَأنّ الحرب لم تنتهي، كأنّ عاصِفةً ضربت مِن الدّاخل، كان الجو بارِدا بِحق، رأيت ما يرتديه أخواه فتقطع حالي... أقمصة بالية،كيف لهم أن يتحملوا برد

الشِّتاء هكذا؟، التفتت إلى فِراشهم فإذا به عبارة عن قِطعٍ مِن القُماش، اتجهت بِنظري إلى الوالدة، تَقدمت نحوها، رأيت والدي وهو في آخر لحظات حياته أمامي، فقد كان سبب موته هو الآخر نفس هذا المرض...

بدأت بِفحصها، كانت حالتُها سَيِئةً جِدًا لكن ولحُسن حظها بالإمكان عِلاجها، لم يفت الأوان بعد، التفتت إلى غيرد وقلت مُخفِفًا: لِحسن الحظ أنّك أتيت إليّ، يُمكِننا استدراك الوضع قبل أن يتفاقم أكثر، سألته حِينها عن ماهية الأدوية التّي يشترط أن تتناولها؟ أراني وصفة الدَّواء، أخذتها منه، قرأت ما بِها، لم تكن تختلف كثيرا عمّا كان يتعاطاه والدي، وضعتها بجيبِ سُترتي وانصرفت.

-سأعود بعد قليل، خرجت مُتجِهًا لِأقرب صيدلية، اشتريت ما يلزم، مررت بالبقالة واقتنيت بعض المأكولات الخفيفة، عدت لمنزل الشَّاب حاملا إيّاها، دخلت وحملته على تقبلِها لِضمان سلامة والدته، اغرورقت عيناه بِالدّموع، جثا على ركبتيه ناحيتي مُحاولًا تَقبيل يدي لِكِني أبيت، أطعمنا الأم وكذا الطفلين فكانت السَّعادة بادية عليهما، ثم ساعدت والدته على تناول دوائها.

هممت بالانصراف إذ كانت السّاعة قد بلغت العاشرة

لـيلًا، رافقـني غـيرد للـشّارع، شـكرني وأخـبرني أنّـه لا يـدري كيف سيُفِيني حـقي، ومِـن أيـن لـه أن يَـرد مـالي إذ اعتبره دَينًا عليه.

فأخبرتـه أنِّي أعمـل في عيـادة خاصـة وأني بـأمس الحاجـة لمـن يـساعِدني كَمُـشرِفٍ عـلى اسـتقبال الزَّبـائن وتـوجيههم خاصـةً أنِّي أكبر يومًا بعـد يـوم، ولـم أعـد أسـتطيع مُواصـلة العمل لِوحـدي، فعرضت عليه المنصِب إن كان يراه مُناسِبًا مُقابِل راتِبٍ يَومي يُعيل به أهله، وفِي نفسِ الوقت مُساعدته لِي إحدى الوسائل التِّي يسد بها هذا الدَّين.

فردَّ بِنبرةٍ ممزوجة بالحزن والسَّعادة: لقد غمرتنا بِلطفك سيدي، لقد فعلت الكثير حقا لأجلنا.

- لـم أفعـل شـيئا يُـذكر، إنّهـا الإنـسانية، أي شـخص آخـر كـان لِيفعـل مـثلي، المهـم هـل تقبـل العمـل الـذي عرضـته عليك؟

فرد بالإيجاب، ومنذُ ذلك الوقت وهو يعمل معي، وقد أبهـرني كثيرا، إذ لاحظـت خـلال فـترة عملـه مـعي أنّـه يتمتـع بفطنة وذكاء مثاليين وسرعة وقابلية كبيرة على التّعلم، وهذا مـا زادني إصرارا عـلى إبقائـه بقـربي، ولحـسن الحـظ أيـضا أنّي ظللـت أتـابع حـال والدتـه وقـد عَلِمـت قبـل فـترة وجيزة أنَّهـا

تَـشعر بِتحـسن مقارنـة بِمـا مـرّ بِهـا، وَهِي تغمُـرنِي بـدعائها وتذكرني في صَلواتِها.

- أنت ذو قَلبٍ طَيبٍ حقًا أيُّها الطَّبِيب، لو كَان كُلُّ البشر أو بالأحرى رؤساؤنا يَملكون مِثل رُوحِك، لَربما ما وُجِدت الحُروب.

اكتسحت نَظرةُ الحـزن مِـن جَديـد وجـه ألبـارت وأتـمَّ قوله: ولمَا حَلت بِنا كل تِلك الكوارِث التِّي فقدنا على إثرِها أعزَّ النَّاس على قُلوبِنا، رُبما لَو لم يحصل أيٌّ مِن ذلك لَكانُوا بِرُفقتِنـــا الآن، دِيفيـــد، دانييـــل، بِيـــتر، رفاييـــل، عَـــائِلتِي، رُبَما...رُبما، أخذ يرتَعِش، يَتصبَبُ عَرقًا حاولت تهدئته بِكل الوَسائِل لَكِن بِلا فائِدة بِدُونِ جَدوى، خذ بعضا من الشّاي لكنه أبى وألقى بالفنجان بعيدا، كَان يَصرُخ وَفَقط إِنَّهم هُنا لِأجلِي أنا أيضًا، سَيقتلُونني كما فَعلوا مع أَصدِقائي، إنّهم هنا، ألَّا تَسمع يَا دكتور أصوات القنابل، طَلقات الرَّصاص...

- إنَّه فِي رأسِك يا بُني، لا أحد هنا غَيرِي أنا وأنت، لا أحد عُـد إِلى رُشـدِك، لَكِن دون جَـدوى، أخـذت أنـادي وَأَسـتنجِدُ بغيرد، دَخل مُسرِعًا...

- مَاذا هُناك يا سيدِي؟

- أحضِر حُقنة مُهدِئ...

- أَيّها يا دكتور؟

- أَي شيءٍ يا غِيرد، أسرع يا بُني...

أحضر لِي الشَّاب حقنتي مورفِين، أخذتها مِنه، مَا إِن رآها ألبارت حتى ازدَاد جُنُونًا لَم أَعلم سبب خَوفِه ذاك، التصق بالحائِط وأخذ يمشي بِمحاذاته، كل ما كان يتردد على مسامعنا آنذاك، ابتعِدا عني، لا تَقتَرِبا أكثر، كان فِي حالٍ سَيئَةٍ جِدًا، لأول مرةٍ أَراه عَليها.

أمرت مُساعِدي أن يقوم بالإمساك بِه، لَكن لم يَكن الأمر بِتلك السُّهولة، قاوم وَقاوم وَفِي الأخِير تمكنا من السّيطرة عليه اقتربت مِنه، حَقنتُ الأولى تَتبعُها الثَّانِية، مَاهي إلَّا ثَوان، فإذا بِه يَهوي جسدًا خَائِر القِوى، حملناه ووضعنَاه فَوق أريكةٍ تَتسِع لِمقعدين، غطَّ بَعدَها ألبارت فِي نومٍ عَمِيق...

استدرت لِغيرد شَكرتُه...

- أحسنت صُنعًا، لقد أثبتت لِي أنَّه يُمكِنُني الاعتماد عليك.

- هَذا واجِبي، هل سَيكون بِخير يا سَيِدِي؟ تساءل الشَّاب حول وَضعِ ألبارت..

فأجبته بِيأس: آمل ذَلِك، وَضعُه النَّفسِيُّ جِدُّ مُتدهوِر ليس مُبشِرًا بِالمَرة، لَيس بِيدِنا حِيلة سِوى الدّعاء لَه.

***

خَـرَّ ألبـارت جالِـسًا أمـام جثـة دِيفيـد، بَعـد أن أطلـق صرخاتٍ متتالية باسمه، تَأمل فِيه جَيِدا وأمعن النَّظر، كَانت ابتسامته المُعتادة مُرتسِمةً على وَجهِه، حتى وَهُو مَيِّت لا يزال نفس الشَّخص المرح.

علت صَافِرات الإنذار، وَسرعان ما بدأ تَراشُق الرّصاص وَتَبادل النِّيران، احتشد الأصدِقاء وَسط تِلك الفوضى لِيَتفقدوا حالهم، وَكان ما ينتظِرهم سُقوط ديفيد... تَأسفوا لِما أصاب رَفِيقهم، لَكِن مَا لَبِثوا أن استجمعوا أنفسهم وَثاروا عَلى المُعتدِي، كَانت صَرخات الغضب تَملأُهم، أخذ ألبارت سِلاحه مِن طِراز "أم بي 40" وَأخذ يَرمي الطلقة تِلو الأخرى، وَكان كل مِن مولر وَسيمون وَهاس بِجانِبه، كَان الظَّلام حَالِكًا مَا أعاق الرُّؤية وزاد مِن صُعوبة تَحديد الهدف وَإصابتِه، فِي حِين كَان مَوقِعهم مَكشوفًا باعتباره أحد القواعد العسكرية للفيرماخت، كُلُّ ما كان جَلِيًّا لهم شُعلة مؤقتة تصدر لَحظة مغادرة الطلقة للسِّلاح...

- "أوقِفوا النِّيران، هذا إهدارٌ واستِنزافٌ لِلذَّخِيرة لن تتمكنوا مِن إصابتهم بِطلقات طائشة فِي جُنحِ هذا الظَّلام، لِنراقب الوسط ولنكن يقظين وحَذِرين" صَاح أحد القادة فِيهم بَعد انطلاق تراشق الرّصاص بِعشر دقائق، لَكِن الطَّرف الثَّانِي لم يتوقف، وَما هِي إلَّا لَحظات حتى عمَّ السُّكون كِلا الجانبين.

لم يَمضِ مِن الوقت سِوى ثَوانٍ وَإذا بِالطّائِرات الأمريكية تُحلِق فَوق رؤُوسِهم تُمطِر مَوتًا عَلى شَكلِ قنابِل، وَعادت صَافِرات الإنذار لِتُدَوِي مِن جَدِيد، بَدأ الكلُّ بالرَّكض نَحو الدّاخِل لِيحتموا مِنها، لَكِن لَم يُحَالِف الحظ الكَثِيرين، وَسُرعان ما انهارت القاعِدةُ نِهائِيًا وَهوت فوقهم، كَان هُناك نَاجون قَليلون، توقفت القنابِل، كَان ألبارت مِمن حالفهم الحَظ لَكِنه عانى مِن جروح كَثيرة، أخذ يبحث عَن أصدِقائه الثلاثة رغم إِصابتِه، فقَد تَفرق عنهم وسط تِلك الغوغاء، وَكَانت المُفاجأة أن لم يَبق مِنهم أحدٌ عَلى قَيد الحياة، خَارت قِواه، ولَم يعُد يَقوى عَلى الحِراك.

لَم يطل الأمر كَثِيرا حتى تسلل لِمسمعه صَوتُ الرَّصاص مِن جَدِيد، كانت القوات البَرِية لدُول الحلفاء تجتاح القاعِدة، أخذت تَقتُل كُلّ من يُقاوِم من النَّاجِين وَتَأخذ من استسلم أسيرًا، ثَوانٍ مَعدودة وَإذ نفرٌ مِن العساكر يتَجِهون

نَحوه، لم تتبق له طاقة للحِراك، فقد كلَّ شَيء لَم يبق لَه أحد، غَرق فِي دَوامَةٍ مِن الأفكار، ماتت الحياة فِي عَينيه، الإحساس والشُّعور.

كُل شيءٍ كان يومًا ذا مَعنى فِي نَظرِه لم يعد كما كان، وَقف العساكِر فَوق رأسِه حَملوه على النُّهوض فرضخ لِأوامرهم دُون مُقاومة وَبات أسيرًا فِي أيديهم، ولِسوء حظه أن وقع أسيرا بِيد السّوفييت.

***

لَم تمضِ أكثر مِن سنة على التحاقه بالفيرماخت، فقد أصدِقاءه فِي السّنة الثّانِية لهم، ووقع هو أسيرًا بين أَيدِي قتلتهم في نَفس اليوم.

قضى السّنتين الأخِيرتين فِي الأسر، يَنتقِل من سِجن لِآخر، ومن بلد لآخر، عانى خِلال تِلك الفترة الكَثِير وذاق كُلَّ أنواع الألم والعذاب، لَم يَهنَأ لَه بالٌ طِيلة فَترة أسرِه، خَاصةً فِي الأيام الأولى لَه.

المُحاولات المتتالية لاستخراج المعلومات مِنه بِكل الوسائل، الكهرباء، اقتلاع الأظافِر من يديه ورجليه، لَم يَكن ذَلِك يُشكِل فِي نَظَرهم اختِلافًا أو فارِقًا إن كَانت نَتِيجةُ الأمر مَعلومة تُساعدُ على كسب الحرب والانتصار فِيها، عَانى

الكَثِيرَ الكثِيرَ طِيلة تِلك الفترة، سنتان مُتتالِيتان، لا أحد يَعرِف عَنه أو يَسمع أخباره، وَلَا يَسمع هو بِدورِهِ عن مَن هم بِالخَارِج، أصدقاء كَانوا أم من أفراد العائلة، كلُّ ما يتردد عَلى مَسمعيه انتصارات الحلفاء المُتتالية، واكتساحهم لأغلبِ المُدن والقُرى، وَكَذا أَين يختبِئُ هِتلر؟ سُؤالٌ لَطالما سَمِعه مراتٍ ومرات...

مَا المناطق التِّي تتواجد بِها قَواعِدكم العسكرية؟ حَدد لَنا العُدة والعتاد لِجيشكم؟ أمّا هو فيلتزِم الصَّمت، لِيتعالى صُراخه مِن الألم بعد لحظات من استِشاط المُحقِقين معه غضبا، فيشرعون في تعذيبه، كَان فِي الأيام الأولى له بِهذا الحال، مِن السِّجن الانفرادي لِغرفة التّعذيب والعكس، وما إن يعود أدراجه مُكبلا لِيبقى وَحِيدًا فِي زِنزانته تَعود لِرأسه تِلك الذِّكريات الأليمة.

يستغيث لَكِن دون جَدوى فَما مِن مُعِين، مَضت الأيام وازداد الأمر سُوءًا، فقرّر المسؤول عَن الأسرى أن ينقله للحبس الجماعي وَإخضاعه للعمل القسري كبقِية المسجونين بعد أن أدرك ما آلت إليه نَفسيته مِن سُوء ظَنًّا منه أنّ العزلة هي السَّبب، خَاصةً مع أنَّهم لَم يَحصلوا مِنه على شيءٍ يَخدِم قَضِيتهم، لَكِن فَات الأوان لَم يَعد ألبارت نَفس الشَّاب.

بات شَخصًا مُنعزِلًا بِنفسِه بدل الشَّخصية الاجتماعية التِّي كان عليها يَومًا، كُلَّما اقترَب مِنَه شَخص نَفرَه بَعِيدًا عنه وَصدَّ عنه حتى أنّ الأمر آل للانتهاء بِشجارٍ وَفوضى، وَمَع مُرور الزَّمن لاحظ آمر السِّجن، أنّ فَوضى عارِمةً حلَّت بات يَصعب التَّحكم بِها بِسبب عِدائية ألبارت والطَّبِيعة الوحشية التِّي اكتسبها، كَما أصبح وُجوده يُعرقِل سير العمل، ففي اليوم الوَاحِد يَفتعل ألف شِجار بِسبب نظرة شخصٍ لَه، كَلِمة لَم تُوجه له حتى، نَاجِمة عن شخص لم يكن يُحدِثه أو تتردد بسبب هلوسته، لطالما ردد أنّه يسمع أحدا يشمت به: "أنت السَّبب فِي موت دانيال"، "مات جَمِيع أصدِقائك لِم لا تزال على قيد الحياة"، "هه استسلمت ورضيت بِالأسر على حِساب قَضيةِ أصدِقائك، أنت خائن"، "جبان"، "فاشِل"، بات عِبارة عن وسوسة نَاجِمةٍ عن ماضيه، هلوسة لا تُغادِر مُخيلته تَروي باستمرار ما عاناه وما يُعانِيه، أَخذ يتصرف على هواه، فتمّ إعادته لِلسِّجن الانفرادي، وعزله عن الجمِيع، كَان هناك شَيخٌ حَكِيم فِي الزِّنزانة المُجاوِرة وَرُبما لولاه لَمّا عادت لألبارت ذَرةٌ مِن عقلِه.

بَدأ الأمر، حِين تَفاقم الوضع مَعَه ذات لَيلة، أخذ يَصرخ بأسماء أصدِقائه الواحِد تِلو الآخر:بِيتر، فِيليب، رفاييل، يَعدُّهم عدًا لِيصمت عِند هذا الاسم بُرهةً مِن الزَّمن لِيصرخ

بِأعلى صوت دانيااااال... ثمّ يُطلِق ضحكة بَعدها ممزوجة بسنفونيةٍ مِلؤها ألم، تَعزِف دُموعه، لِيُلحِنها بُكاؤه، أنا السّبب، صدقوا فِي إلقاء اللّوم عَلي، يَتنفس الصُّعداء بَعدها لِيُزاول عَدَّه: دِيفِيد، هَاس، مولر، سيمون، ليتسأل بَعدَها، أين أنت يا كِيفن؟ ماذا تفعل؟ أَبي، أُمِي ماذا...ماذا عَنكما؟ هل نَسِيتُماني؟ تَخليتُما عني؟ أخي الصَّغِير؟ لِيبتسِم عند ذكر اسمه سيباستيان، أختي كريستِينا، أين أَنتما؟

وَيأخذ بالبكاء عدة دقائِق ثُمّ يُعِيد ذِكرَهم مِن جَدِيد، كان الشَّيخ فِي بادئ الأمر يُنصِت فقط، الأسطوانة تدور وحالما ينتهي فيلمُها تُعاد، أصبح العجوز يحفظها ظهرا عن قلب، لكِن قلبه لم يُطاوِعه وانفطر لِمعاناة هذا الشَّاب، فَأخذ يُهدِئه بِبعضٍ مِن كَلِمات المُواساة، أهداهُ أملًا بِأنَّ عَائِلته قد تكون على قيد الحياة، ألبارت لم يقتنِع بِدايةً، فأظهر الشَّيخ حِكمةً ودهاءً فِي حِواره معه تمكن بِذلك من غَرسِ الفِكرة فِي ذِهنه، ومن ذاك اليوم أصبحا يتحدثان كَثِيرًا وحِين تَعود نَوباتُ الهلع والفزع مِن جَدِيد كان يُعِيده لِرشده ووعيه، سأله ذات مرةٍ عن سبب وُجوده في السِّجن الانفرادي فكانت إجابة الشّيخ أبراهام أنّه كَان يُحرِض السُّجناء ويثير الفوضى ويُشجِع على التَّمرد رَفضًا للاضطهاد الذي يعانِيه السّجناء...

- لم يتم إعدامي بسبب القوانين الدولية الصارمة...

خلال تِلك الفترة تعلم ألبارت أشياء جَديدة من ذاك الحكيم، كما أدرك فِي إحدى الحوارات المعتادة أنَّه مُصابٌ بِوباءٍ خَطِير وأنّه على مَشارِف الموت، مَضت الأيام وَانطفأ صَوتُ الشَّيخ وغاب، أحس ألبارت بِالوحدة، نادى عَليه مراتٍ عدِيدة لكن دون جدوى مع الأسف، أدرك أنّ رَفِيقه الوحيد لَقِيَّ حتفه، كَانت مُدةً لا تفوق الشّهرين لَكِنَّه حزن على فِراقه، بَقِي مُتَمسِكًا بخيط الأمل الذي منحه إياه...

وذات يوم جَاء أمر بِنقل بعض المساجين للولايات المتحدة الأمريكية، وكان من بين من وقع عليهم الاختيار، حيث تم نقله إلى معسكر في مدينة أوسو بِولاية ميشيغان الأمريكية، أين أكمل باقِي فترة أسره، خضع خِلالها مع باقي الأسرى هناك للعمل في المصانع، المزارع وحتى المطاحِن نَظرًا لِنقص اليد العاملة هناك، كان ذلك مُقابِل أجر بَسيط استُعمل لِسد تكلفة برنامج أسرى الحرب، وَفِي إحدى الأيام انتشر خبرٌ بِأنَّ ألمانيا أعلنت استسلامها بعد وَفاة رئِيسها أَدولف هِتلر، وصدر القرار بالإفراجِ عن السُّجناء وتمت إعادتهم لِوطنهم الأم.

عَـادت الحريـة لِكـل مـن تـمَّ القـبض عليـه إِبـان هـذه الحـرب، عـدا سـجناء السـوفييت، وطـأت قـدما ألبـارت أرض الوطن، كُلُّ ما كان يَأسر تَفكِيره البحث عن عائِلتِه...

بَـدأ البحـث في الـضَّفة الجنوبيـة الغربيـة أيـن كانـت وِجهـتهم سـابِقًا، سـأل وسـأل عـنهم، لا أحـد رآهـم أو سَـمِع عنهم، واصل بحثه لِمدة أسبوعٍ وَأخِيرًا تَوصل إلى أثر، أرشده أحد السُّكان هناك أنَّهم غادروا باتجاه فرانكفورت، كانت تقع هذه الأخيرة في وسط غرب ألمانيا، فكان أول ما تبادر لِذهنه أنَّهم عادوا لِلدِّيار، رُبما يبحثون عنه الآن، فقرر العودة هو الآخر لِقريته ومدِينته، وَما إن داست أقدامه تُرابها وتنفس هواءها، شعر بالحنِين، تَذكر أصدِقاءه، لَكِنَها كَانت خَرابًا، الحـرب حولتها إلى حُطام، تَداعت رَكائِزها بِفعل الغارات، لكن هناك من يحاول النّهوض من بين تلك الأنقاض، فقد وجد أثرا على الحياة، تذكر دانيال وَتَضحِيته، هُنا بدأ كل شيء، عـاد إلى نُقطـةِ البِدايـة، عـاد بِالـذَّاكرة لِلحظـة مـوتِ صَديقه، المشهد المُروِع لانفجار القنبلة التِّي نسفت جثته وحولتها إلى أشلاء، سرت رعشةٌ دَاخِل جسدِه، حاول تَمالك نَفسِه وتمكن من ذلك بِصعوبة، بدأ يَسير في الأرجاء، رأى دُخانًا يَخرج مِن الكنيسة فاتجه نحوها، اقترب ببطئ، دَفع البـاب ودخـل، كانـت تَعـجُّ بِـسكان القريـة، أَسِرة مَليئـة

بالجرحى، كانت تمِيل لِكونها مُستوصفا مِن كونِها كَنيسة، أغلب من بِها ضحايا الحرب، انتابه الخوف مِن فُقدانِ عَائِلتِه مرةً ثانِية بعد أنِ اقترب من ايجادها، بَحث بين النّاس فِي كل أرجائها، تَفقدها زَاوِيةً بِزاوية، حِين بَدأ يَفقِدُ نَفسه، اقترب مِنه أحد المُسعفِين هُناك، سأله كَيف يُمكِنه مُساعدته، فأخبره ألبارت عمَّا يبحث وأنَّه لم يجد لها أثرا...

- هل بحثت في القسم الخلفي للكنيسة؟

- لم أعثر على شيء سِوى أكياس كبيرة من القُمامة.

- تِلك ليست قمامة بل جثث أشخاص فقدوا أرواحهم، قُتِلوا في هذه الحرب الطاحنة.

- ماذا؟ أنا آسف بحق لم أكن أعلم...

- لا عليك، لِتبحث هناك ربما تجد جثث أفراد عائِلتك مِن بَينهم، لا أظن أنّهم نَجوا مِن القصف.

أخذ ألبارت يبحث في الأكياس ويداه ترتجِفان، قلبه ينبض بِقوة كَأنّه سيخرج مِن مكانه.

أخذ يفتح الكيس ويكشف اللِّثام عن الأجساد الواحد تلو الآخر، فِي كلِّ مرة يكتشف أنَّ الجثة ليست لأي فردٍ من أهله يزداد توُتّرًا أكثر، ثُمَّ توقف لَدى إِحدى الجثث لِصَبِيٍ لم

يبلغ الثانية عشر مِن عمره، شَدته مَلامِحُه المألوفة، كِيفن! ارتسمت علامات التَّعجب على وجهه وأخذ يتلعثم فِي كلامه...

- هَذا أنت؟ كَيف؟ ما الذي أتى بِك إِلى هنا؟ على أساس أنَّهم سَيتكفلون بِرعايتك، ألم يُصرِح ذلك المُلازِم أنَّه سيُوصي بِك لِعائِلةٍ نَبِيلةٍ لِتتبناك حِين...حين أدرك...أدرك خطورة الوضع عليك نظرا لصغر سنك؟ كَيف... كيف فَرطوا بِك أيُّها الصَّغير؟ احتضنه وقبّله على جبينه ثم دعا له بالرّحمة.

وواصل بعدها تَفقد باقِي الأكياس بِإِلقاء نظرات خاطِفة وَعيناه قد احمرتا، وشحُب لون وَجهِه إِلى أن لَم تبقَ سِوى أربعة جثث، اثنتان كبيرتا الحجم والأخريتان صَغِيرتان ويا للحظ السّخيف، لقد كانت مُطابقة لأفراد أسرتِه، حاول أن يبقى ثابِتًا، تردد فِي البِداية قبل أن ينظر إِلى ما بِداخِل الأكياس، أخذ نَفسًا عَمِيقًا وأقدم على فتحها، رأى ما كان يتوقعه كُلُّ أفراد عائِلتَه وأخذ بِالصُّراخ والبكاء، آخر شيء كان يُبقِيه على قَيد الحياة لم يعد موجودًا، بَصيص الأمل كان زائِفًا، لا للمُواصلة الآن...

***

حـل الظّـلام وانـسدل سِـتار أمـام ناظِرَيـه، اسـتدارت بِـه الدنيا 180 درجة...

فَـتح ألبـارت عينيـه المملـوءتين بِالـدّموع، لِيجـد نفـسه مُستلقِيًا على الأريكة لدي، لم يَقو على الحراك ولا الكلام.

- هـل اسـتيقظت يـا ألبـارت؟ لقـد مـضى كـل شيء، لا تقلق.

سأل بِصوتٍ يُنِمُ على العجز، أين أنا؟

- أنـت فِي عِيـادتي، ازدادت حالـك سـوءً فاضـطررنا إلى حَقنك بمُهدئ، وقد نِمت على إثرِ ذلك.

- فِي أي سنة نحن يا دكتور؟

- فِي بِدايةِ عام 1948..

- فِي أي شهر؟

- أواخر شهر فيفري..

- منذ متى وأنا نَائم؟

- ساعتان ونِصف.

حَسنًا، إذا سـاعتان كانتا كافيتين لإعـادة أسـطوانة حياتي هه، ثُمَّ التزم الصَّمت والكِتمان مِن جَدِيد...

لَم أره بِهذا الهدوء منذ فترة، طيلة الشّهرين المُنصرمين، كان شخصًا غير مُتزِنٍ غير قادرٍ على تمالُك نفسه، اليوم رأيتُ أملا لِخلاصه، رُبما يَعود لِسابق عهده كما كان قبل الحرب، تَركته لِوحدِه في المكتب في حِين غادرتُ أنا العيادة، اتجهت نَحو البقالة كي أشتري بعض المستلزمات، مررت في طريقي كذلك بالمقهى كي أُحضِر كوب قهوة، كنت قد أرسلت غيرد لِمنزله بِحجةِ أنّني لن أستقبل أي مريضٍ آخر طِيلة الدّوام، رفض في البِداية وَأراد البقاء بِرفقتي، وقد ردد كثيرًا على مسمعي: " قد يثور من جديد لن تقدِر عليه لِوحدك يا سيدي".

- لا عليك يمكنني تولي الأمر بِنفسي ثِق بي.

وبعد نقاشٍ ومُحاولاتٍ مِنهُ لإثبات وجوب بقائه...اقتنع بما قلت، بعدما أضفت له: " لِيكن اليوم عطلةً لك،عُد لِبيتِك واجتمِع بِعائِلتك فقد كنت مشغولا طيلة الأسبوعين الماضيين عنهم، أهلك في انتظارك ".

عدت للعيادة دققت باب المكتب ثمَّ دخلت، لم أجد ألبارت كان قد غادر مكانه وخرج مِن العيادة تاركًا خلفه رِسالةً يعتذِر فِيها: "لا أدرِي ماذا أقول، لا أعلم حتى بِأي وجهٍ أتحدث الآن، آسف على كلِّ ما سببته لك مِن مَتاعِب

يا دكتور، لم يَكن بِيدِي، خرج الأمر عن نطاقي، فاق حدود طاقتي وقُوتي، اللاّوعي تفوق عليّ، لكنّه ليس بالعُذر المقبول، لا أدري كم مرةً يجب أن أعتذِر مِنك، بتت على علم أنَّ حالي سيئة ومُستعصِيةٍ لِحد كبير لِذا قررت ألَّا أزِيدك عِبئًا، كُنت ثَقِيلًا على كاهلك ومسؤوليةً كبِيرة لَكِن لم تسأم مِني يومًا قط، زرتك أربع مرات فقط، كانت مرة كل أسبوعين على امتداد شّهرين، في كل واحدة منها كنت تبذل قصارى جهدِك من أجل الوصول لحل لمعضلتي وتحاول جاهدا تهدئتي عند ثورتي، اتصلت بِك فِي أوقات لا يُفترض بي الاتصال فِيها لكنك تقبلتها بكلِ صدرٍ رحب، عاملتني كبشري في حين لقبني الكثيرون بالوحش الهمجي، حتى الجيران اشتكوا مني وحاولوا التّخلص مني وطردي، بالّرغم من معرفتهم بما أصابني، لكنك أحسنت مُعاملتي، شكرًا على كلِّ شيء ".

ألبارت

- أحمق...

كان خطابا شاعريا بحق حتى أنّ عيناي كادتا تدمعان، طأطأت رأسي ثمّ انصرفت لعملي، لم أسمع عنه شيئا بعدها طيلة شهرين آخرين مُتتالين...

الفصل الثالث

كنتُ مُستلقِيًا فِي فِراشي، هَائِمٌ أنا فِي أفكاري ...

لم أُعرِف عن نفسي سابِقًا، ما جعلني أفكِر إن كان هذا الأمر مُهِمًا بِالنِّسبة لكم، أنا لا أراه كذلك، لكِن سرد هذه الأحداث أصابني بِنوعٍ مِن الإكتئاب، لذا قررت أن أُغيِّر مجرى الحديث قَلِيلًا ولِأتحدث عن نفسي.

***

أُدعى أدريان كَراون، أبلغ مِن العمر اثنين وستين عاما، طَبِيبٌ نَفسِيٌ أعزب، أعيش في العاصِمة برلين مُذ استسلمت ألمانيا وتمَّ تقسِيمها بين الدول الحلفاء، ألمانيٌ ذو أصولٍ دانماركية، مِن أبوين مختلفي الجنسية، عِشتُ حياةً ضنكا بِدايتها كانت مليئةً بالألم، إذ فقدت والدتِي في سِن مُبكِر أين كان عمري لم يتجاوز الأربع سنوات، أمّا والدي فلطالما كان يصعُب عليّ أن أُنادِيه بأَبِي، لم أذُق مِنه طَعم الأبوة يومًا منذ وفاة أمي، عاملني بِقسوة دائِمًا، أكلت ضَربًا مُبرِحًا لأتفهِ الأسباب، حرمني من الطَّعامِ لِليالٍ مُتَتَالِية، نِمت خَارِجًا وأنا

في سن الخامسة حتى في أشد الأيام بُرُودة...

فِي سـن الـسَّادسة بـدأت أرتـاد المدرسـة، احتللـت أولى المراتـب دومًـا، تفوقـت عـلى مـن هـم في سِـنِّي لَكِنـه قابـل نجاحاتي بِدم بارد.

كنـت أظـنّ أنّ تفـوُقِي سـيُغَيِّر مِـن طريقـة مُعاملتِـه مَـعِي، لَكن لم يحصل شَيءٌ مِمّا توقعته، كأنّ الأمر لا يهمه، كأنِّي لا أعنيـه، انهزمـت عاطِفيًـا، قهـرت دَاخِليًـا فِي سـن الـسَّابِعة، لاحـظ المُشرِف تَراجـع تحـصيلي الـدراسي فاسـتدعى والِـدي، وطـرح عليه الوضـع الـذي أنـا عليه، ويـا ليـت ذاك اللِّقـاء لـم يحـدث، عـاد إلى البيـت غَاضِـبًا بَـدأ بِالـصُّراخ قـائِلًا: " هـل تُحاول إظهاري بِشكل الأحمق أمام النّاس؟ هل تسخر مِني أيُّهـا الـشَّقي؟ هـل أُطعِمـك وَآوِيـك ثـمّ تـأتي لِتُحـرِجنِي أمـام الآخرين؟" وانهال عليَّ بَعدهَا بِضربٍ مُبرِح، خذ أيُّها الأحمق، غـبِي، ثـمَّ توقـف لِبُرهـة وردّد: " أَم أنَّـك تتحـدث عـنِي مـع أشخاصٍ آخـرِين، تَـصِفنِي فِيها بالشَّخص السَّيء والمُتسلِط وتروي للنَّاس كلَّ ما أصنعه بِك؟ آه بدأت أفهم الآن، أهكذا رَبيتُك؟ ".

- ربيتَـنِي! مـن؟ أنـت؟ لقـد ربتـني أمي أنـت لـم تفعـل لي شيئًا، سِوى مُعاملتِي مُعاملة العبِيد، أجل أنت شخصٌ سيء

لَكنِي لستُ مثلك..

- ما هذه الوقاحة! اخرس.

كان يصرخ بغضب، لكن ما هو ذنبي، صفعني بِكفٍ سقطت أرضا على إثرِه، قَلِيل التَّربِية، هل هذه تربية والدتِك لك؟

وقفت وقد امتلأ وجهي بِالدماء: " لن أسمح لك بالتحدث عن تربيتي ولن أسمح لك بِالتَّطاول على نِتاج يدي والِدتِي، لولا تربِيتُها لِي لمَّا كنتَ بِجانبِي الآن، لَكنت قد اشتكيتُ بِك، أو هربت أو حتى... لن تراني أو أراك ثانِية ".

- أو حتى قتلتني أليس كذلك؟ اُصمت أيُّها الولد الغِر، أيُّها اللّعِين، واصل عمله الذي لا ينفك عنه، عاد لِضربي وكان لِوقعِ الحادثة شيءٌ مُختلِفٌ هذه المرة، كأنَّه كان يشعر بالهزيمة، أحسست بِلذة الانتصار لِوهلة، لكن ذلك الطُّعم لم يدُّم لم يتوقف عن ضربي، شعرت أنَّ عِظامي سُحِقت الواحِدة تِلوَ الأُخرى، لَعنتُ نفسي، صمتت، كل ما كان يُعبِر عن شُعوري بِالألم فِي تلك اللحظة، دُموعِي المُنهَمِرة، لكِنَه لم يتوقف بالرّغم من كل النُّدوب التّي تسبب لِي بها.

كان وحشًا بِكل معنى الكلِمة، لم يتوقف سيل اللَّكمات حتى أُغمِيَّ عليَّ، لم يَقم حتى بِحملي ووضعِي فِي سَرِيري أو

حتى على قِطعة من القُماش بل تركني مَرمِيًا فِي إحدَى زوايا البيت، لا أدرِي كم مِن الوقت نِمتُ على إثرِها، استيقظت فَوجدتُه نائِما مُستَلقِيًا عَلى أرِيكةٍ بِغرفةِ المَعِيشة، لَطالما جلس عليها منذ وفاة والِدتِي، بِجانِبه أكثر من قارورة نَبِيذ فارِغة، يبدو أنَّه نام بِسبب الفُرط في الشُّرب.

فَكرت فِي أنّ الفرصة سَانِحةٌ لِأخذِ انتقامِي ثمَّ الهروب بَعِيدًا مِن هنا، لِأركض بعدها وألَّا أتوقف أبدًا، المهم أن أشفِي غليلي، ذَهبتُ إلى المطبخ أخذتُ سِكِينًا، تَسرَب لِجسدِي شُعورٌ غرِيب لَكِنه كان جمِيلًا، أجل الشُّعور بِالقوة، اقتربت منه فِي هدوء، رَفعت الخِنجر عالِيًا، كانت أنظاري تتجه إلى قلبِه، ضربةٌ واحدِة، طعنةٌ فِي قلبِه كفِيلة بِشلّ حركتِه، وأُغلق دفتره نِهائيا، وليكتب المؤرِخون أنَّ اليوم كان تاريخ وفاة آرثر كراون أو مستر مونستر، لِأنّه الاسم اللائِق به، السَّيد الوحش، كانت الفِكرة جَيِدةً فِي نَظرِي إلَى أن ارتسمت صورةُ أمِي الرَّاحِلة: " تَوقف يا بُني، أدريان لَيس مِن هذا النَّوع، أنتَ شَخصٌ لَطِيف، لَست قَاتِلًا، أنا من رَبيتُك وأعلم أنَّك طِفلٌ مُطِيع فهل تَرضى أن تَكون مِثلَه؟ انظر إلى حالِه، كلبٌ مُتشرِد، هل ترضى أن يلحق باسمِك العار؟ أخبِرنِي يا صغِيري، هل تُحِبُ أن يلحق اسمك السَّفاح؟ كأن تصير أدريان السّفاح، المجُرم أدريان وأنت فِي هذه السِّن، فِي

حين يُطلق على زملائك ألقاب تفتخِر بِها عائِلاتهم، كالدكاتِرة مثلا، ألَّا تود أن تكون مِثلهم وترفع رأسي عالِيًا؟ ألَّا يَحِقُ لي أن أفتخِر بابني؟ الدكتور أو البروفيسور أدريان كراون، ابن بِيرنا كَراون...

بِالرَّغم مِن المُعِيقات والاضطهاد مِن طرف والِدِه إلَّا أنَّه تمكن مِن كسر القيود وجعل لِنفسِه تاريخًا وصنع مجدًا " ومِن فِكرة الانتقام تلك، وجدتُ نفسي أحلم بَعِيدًا وكان أجمل الأحلام، سأبذل ما بوسعي، سأحقِق حلمكِ أماه، لن أنهزم أمام رغبتي في الانتقام، سأبني جِسرًا خاصًا بِي..".

تراجعت عن فِكرتِي فِي قتل والدي، أعدت السِّكين للمطبخ، وبدأت بالسَّعي لذلك الحلم، أجل قررت أن أكون موضِع فَخرٍ لِوالِدتي، منذ ذاك اليوم وأنا أدرس بِجد، واصلت نجاحِي وَتفوقِي، بِالرَّغم من المُعاناة التِّي تُواجِهنِي إلَّا أنِّي لم أتوقف.

قد أكون تراجعت خطوةً للوراء ذات مرة، سقطت أو فشِلت، لَكن سُرعان ما عدتُ للطَّريق، نَجحت وارتقيت أولى المراتِب، وما إن دخلت الكلية حتى تغيرت نَظرةُ والِدِي اتجاهي، أصبح يُحسِن مُعامَلتِي، كأنَّه شخصٌ آخِر، لَكِن كان لِذلك وقعٌ فِي ذاتِي.

كان مُحفِزًا لِي بَعد أن كان سببًا مِن أسباب ضُعفِي، بات مصدر قوة، التحقت بكلية الطِّب، كَان الأمر صَعبًا فِي البداية، أساتِذة جدد، وجوه جديدة، أشخاصٌ لا تربِطني بِهم صِلة، لكن سرعان ما بدأت أعتاد الأمر وكونتُ صَداقاتٍ حديثة، كان لِي ميولٌ لِلجانب النَّفسي، فلطالما أحببتُ مَعرِفة النَّاس وطَبِيعةَ تَفكِيرهم خاصة من هم بمثل والدي، رغبت كثيرا في فهم الحياة من منظوره الخاص، وددت كثيرا أن أواجه تَعقِيدات العقل البشري بِحد ذاتِه وأفهمها، فاخترت الطِّب النَّفسي كتفرعٍ لِي، وَقد أُغرِمتُ بِه كثيرًا، كان طيفُ والِدتِي هو ما يُحفِزني من جهة ثُمَّ شغفي وحبِي لهذا التَّخصص.

برعت في ذلك وتخرجت بِفضل الرَّب، لَم أخيب آمال أمي، لم يَضِع جُهدُ السِّنين سُدًى، كان عمري لَمَّا تخرجت ثمانِية وعِشرِين سنة، كان مِن المفترض أن يحصل في سِنٍ أكبر لَكِن شاءت الأقدار أن تندلِع الحرب العالمية الأولى ما أعاق سير الأحداث كما كان يجب أن تكون عليه، المهم دَعمني والِدِي فِي فتح عِيادة خاصةٍ بِي، شَكرته كَثِيرًا على مُبادرَتِه الطَّيبة، احتفلنا معا في ذاك اليوم، كان أول وآخِر احتفالٍ لنا، تبادلنا فِيه أطراف الحديث، سألته عن تغيره المُفاجِئ فأخبرنِي أنَّه مُصابٌ بِالسُّل، وصرّح أنَّ نِهايته اقتربت

لِذا قرر أن يُحسِن مِن تصرفِه معي تَكفِيرًا على كُلِّ ما مضى، عسى أن يتقبل الرّب توبته، وبالفعل لم يطل الأمر بِضعةُ أشهرٍ فقط وَسلمناه لِلتُّراب، لم أتحمل البَقاء فِي البلد فقررت الاطلاع على العالم الخارجِي أكثر، فسافرت إلى فرنسا، الصِّين، الدانِمارك وبعض الدّول المُجاورة، طورت مهارتي فِي الحوار كي يُتاح لِي التَّصرف بِسهولة إن حصل وصادفت حالاتٍ متعددة جديدة عليّ.

اندلعت الحرب العالمية الثَّانِية، فعُدت للوطن بِصعوبة، عَملتُ في إسعاف المرضى والجرحى، أردت أن أكونَ ذا فائِدة وعُنصُرًا فَعالًا فِيها، لَكن القدر هو القدر خَسِرنا الحرب، عُدت للعاصِمة وأعدت بِناء ما هدمته الحرب فتحت عِيادة هُناك، حان وقت الاستقرار، تقدم بي العمر ولم أعد كما كنت بِنشاطي وقُوتي، قمت بِشراء بَيتٍ صَغِير لِأعِيش فيه، وكالعادة تَجمعك الأقدار بأشخاص كُثر، وربما لولا استقراري لما تعرفت على غيرد وألبارت ولما قدمت لهما يد المساعدة، ربما جعلني الرَّب وسيلة خير، ربما هذه هي الحِكمة مِن وُجودي.

***

في يوم الأربعاء الموافق للسّابع عشر مِن شهر ماي في العام الجديد، سنة 1948، كانت السَّاعة الثَّامِنة ونِصف صَباحًا، فِي حِين قررت تَأخِير دوام العمل لليوم بسبب التَّعب والإرهاق الشَّديدين اللّذيْن نالا مِني هذا الأسبوع، أعلمت غيرد سَابِقًا بأنِّي سأتأخر ساعةً عن المُعتاد وطلبت مِنه أن يتولى فتح العِيادة.

كُنت مُستلقيًا أراقِب سقف الغرفة، وكِلانا ينظر للثاني ويتوعده بِأنَّه سيسقط قبل الآخر، بَدأ الكِبر يُؤثِر عليّ، أو أنَّ كثرة المرضى النَّفسيين جعلتنِي واحدًا مِنهم، تسللت عبر الصَّمت خُيوطٌ معزوفةٌ لِصوت الباب يُدَق، ظننتها مُجرد هلوسةٍ منِّي فَضحِكتُ مِن نفسي والوضع الذِي أنا عليه، لكَن ذاك الشُّعور تبدد بعد أن ازدادت وتيرة وحِدة الدّق، كنت فِي ملابِس النَّوم، فتحتُ الباب فإذا بِه الصَّبِيُّ غِيرد، كان يتصبب عرقًا، يَحمِل بِيدِه بَرقِية...

- ماذا هناك يا بُنيّ؟

- رِسالةٌ عاجِلة سَيدِي...

- مِمن؟ من المُرسِل، ولِم هي بِهذه العجلة؟

- مِن رِجالِ البوليس، بِخصوص ألبارت، يبدو أنَّ الأمر سيِء...

- ألبارت؟ تعجبت مِن الأمر، لكِن ما علاقةُ ألبارت بِرجال الشُّرطة؟ لا أظن أنّ مِن ورائهم خَيرًا، تَفضل إلى الدّاخِل يا غِيرد...

- كلا يا سيدِي، يَجب أن أعود للعِيادة فقد تركتها مفتوحة، حِين تسلمتُ الرِّسالة، لم أُعِرها اهتمامًا لِكن الشُّرطي الذي أحضرها أخبرنِي أن أُعجّل بتسليمها لَك...

- آآآ فهمت، إذا هوّن الله عليك، شكرًا يا غِيرد.

- إن احتجت أي مُساعدةٍ أخرى يا سيدي أخبِرني.

- حسنًا، سأوافِيك بعد قلِيل...

انصرف الفتى فِي حِين عدتُ أنا لِلدّاخِل، جلستُ على الأرِيكة فَتحتُ الرِّسالة وأخذتُ أقرأ نَصها:

" مِن رَئِيس المخفر السّيد أكسل بيرنر، إلى السَّيد أدريان كراون، نَدعو حَضرتكم للحديث حَول قَضية قتل غابرييل فرانسوا وَألكسندر ويليام، اللّذين وَقعا ضَحيةً ألبارت تِيلي، لِأنَّ الوضع خَطِير، سَنُعلِمكم بِكلِّ التّفاصيل حال حضور سِيادتِكم ".

التوقِيع:

أكسل بيرنر

سـقطت الورقـة مِـن يـدِي، والتزمـت الـصَّمت، لـم أكـن أدري ما حصل لم أستوعِب الأمر، آه مِنك يا ألبارت ما الذِّي فعلته بِحق الجحيم !

مـاذا عـليَّ أن أفعـل الآن؟ أخـذت أمـشي في الغرفـة جِيئةً وذهابًا، ثـمَّ قـررت الـذَّهاب للمخفـر للاستفـسار أكـثر حـول الوضـع، غَـيرتُ مَلابِـسي فِي عجـل وغـادرتُ مـنزِلِي، مـررتُ بِالعيـادة لِأُعلِـم غـيرد بـأنِّي سـأتأخر وأُخـبِرَه بِالوضـع، لِتكـون وِجهتِي التَّالِية كما كان مُخطَطًا.

***

وصلت إِلى مخفرِ الشُّرطة، توجهت لِمكتب الاستقبال، ألقيتُ التّحية..

- هـون الله عليك، ثـمّ سـألتُ عـن الـسيد أكـسل إِن كان موجودًا؟

فردَ بالإيجاب ثمّ سأل: من حضرتُك؟

- الـدّكتور أدريان كـراون، أنـا هُنـا بِطلبٍ مـن الـسّيد بيرنـر حول قضية ألبرت تيلي.

أخرجت الرِّسالة مِن جيبِي وأريتُها له..

ألقى عليها نظرةً خاطفة.

- حسنًا سأُعلم حضرة الرّئيس بِمجيئكم وأعود.

- حسنا شُكرًا جَزِيلًا، ما هِي إلَّا لَحظات وَإذَا بِه يُنادِيني: سيد أدريان الرّئيس ينتظرك فِي مكتبِه.

أرشدنِي إليه، استأذنت بِالدُّخول..

- مرحبا سَيدِي.

- أهلا بِك: سيد كراون؟

- أجل؟

- تفضل بِالجلوس..

جلست، حَدقتُ فِيه لحظاتٍ وافتتحت الحدِيث: كنت قد طلبت رُؤيتِي لِسبب، ألا وهو هو قضيةُ قتلٍ تمَّ ذِكر ألبارت فِيها على أنّه هو القاتِل.

- أجل ويؤسِفنا القول أنَّ هذا ما حصل بِالفِعل.

- اللَّعنة، هل وصل بِه الحدّ إلى أن يُهدر دم أشخاصٍ آخرِين؟

- بَحثنا فِي سِجلاته لَعلنا نَجِدُ مَعلوماتٍ عنه، كُلّ ما توصلنا له خدمته العسكرية السّابقة أثناء الحرب، وأنّه بات بِلا أحد في هذه الحياة على إثرها، أنت الشَّخص الوحِيد الذي تربِطك صِلة به، حَاولنا التَّحقِيق معه واستِخلاص

مَعلومـاتٍ منـه حـول سـبب جَريمتـه الـشّنعاء لَكِـن دون جَدوى، عسى أن تُساعِدنا فِي ذلك، فقد التزم الصّمت ولم يَرّد وهذا يُؤثِر عليه، فالمُرجح ليُحكم عليه بالإعدام إن كان القتل عمدًا لو لم يتم إلغاء المادة النّاصة به، لذا فالغالب السِّجن فترة مُحددة أو المُؤبد، والواضِح أنَّه سيكون المؤبد لـو أخـذنا بِعـين الاعتبـار جنـسية القتيلـين، الأول فرنـسيّ الجنسية والثَّانِي بِريطاني، كانا ضِمن دُفعةٍ استكشافِية.

- كَيف حصل الأمر؟

- حسب الشُّهود فالجريمة وقعت فِي زُقاقٍ بين عِمارتين فِي إحدى شوارع برلين، كَانت السَّاعة الثّامِنة لَيلًا، والظّاهِر أنّهما كانا فِي حالة سكر تِلك الليلة فقد شاهدهما أحد المارة يَخرجـان مـن إحـدى الحانـات لَكِنـه لـم يُعِرهمـا اهتمـام، اصطدما بِألبارت فوقع أحدهما أرضًا، لَكن ألبارت لم يكترِث لَه وواصل مَسيره، حاولا استفزازه، والظّاهر أنَّهما نجحا فِي ذلك، حِين رأى الشَّاهد الوحيد أنَّ الأمر بدأ يزداد تَعقِيدًا انصرف كي لا يَطوله الأمر.

سَمِع الجيران صُراخ ألبارت، تلاه صراخُ الفَقِيدين، وحين اجتمع النّاس لِيستفسروا حول الوضع، لَمحوا الجثتين اللّتين كانتا قد فارقتا الحياة، أمّا ألبارت فكان يحمل بِيده سِكِينًا

وكلّ جسده ملطخ بالدِّماء وهو يُردِد لست فاشِلًا، لست خائِنًا، وتعلو ثغره ابتسامة مجهولة السبب، طُعِن الشَّخصان فِي أنحاء كثيرةٍ مِن جسديهما، كما تلقيا ضربا هشم رأسيهما، كأنَّه لم يهتم أبدًا لِحياتِهما، قتلهما بِكل وحشيةٍ ودمٍ بارد، والمُحيّر أنَّه لم يُحاول الهرب، بل بَقِي واقفًا فِي نفس المكان الذي حدثت فِيه الجريمة، والآن بالرَّغم من كل التَّعذيب الذي ذاقه لم يتفوه بِكلمة، لم يُحاول الدِّفاع عن نفسِه، كأنَّه ترك نفسه لِيسقط دون مُقاومة أو أنَّه يعلم أنّ ما سيقوله بلا فائدة.

- لا أعلم كيف أشرح لك سيدي، لكن ألبارت ليس بالشَّخص العادي..

- ماذا تقصِد؟

- هو مريضٌ نَفسي.

- ماذا تقول؟

- أجل، مع الأسف هذه هي الحقيقة، كان يرتاد عيادتي طيلة شهرين لَكنه توقف عن ذلك منذ فترة، بِسبب حادثة وقعت له بها، إذ فقد السَّيطرة على نفسه، أوقفناه بِصُعوبة، لَكِنّه اعتذر وانصرف تارِكًا أسفه في رِسالة، بات يرى نفسه عِبئا وحِملًا ثَقِيلا علي، والواضح أنَّ الأمر ازداد سوء وأصبح

أكثر تَعقِيدًا مِمّا كان عليه، فهل تسمح لي حضرتك بِمُقابلتِه؟

- إذا كان ما تقوله صَحِيحا فقد يُخفِف ذلك من حِدة العقوبة التِّي ستسقط عليه، هو في السِّجن الآن، سأهيئ لكما غرفةَ التَّحقيق كي تتمكن من الحديث وسأراقبكما من خلف النافذة.

- حسنا شُكرًا لك يا سيدي.

***

دخلت الغرفة واجتمعت بِألبارت، لَكن المُفاجئ، أنّني شعرت ببرودٍ كبير فِي عينيه، تغيَّرت طبيعتُه كثِيرًا، مات الشّخص الذي كان عليه.

- مَرحبًا، ألبارت كيف حالك؟

- أهلًا يا دكتور..

لا أعلم هل أنا بِخير أم لا؟ هل يُشترط أن أحزن كوني أسيرا هنا أم لا؟ هل أخاف مِن العقوبة التِّي ستحِلُ بِي أم لا؟ كلُّ ما أنا واثِقٌ مِنه، أنِّني قتلت شخصين بِلاوعي، دون شُعور، والمؤسف أنِّي لا أشعر بِالنَّدم اتجاه ذلك...

- ما الدّافِع وراء ما قمت بِه أخبِرنِي؟

- لست المذنب ولست المُخطئ.

- مِن أين أتيت بالسّكين؟ ليس من عادتك أن تَحمِل سِلاحًا معك؟

- هل نسيت أنِّي لطالما كنت أمشي وبيدِي سِلاحٌ أثناء الحرب؟

- أنا أتحدث بِجدية هنا هلا أعرتنِي اهتمامًا لو سمحت؟ نحن نتحدث عن مصيرك.

- حسنا، أخذ تنهيدةً عمِيقة ثمَّ واصل كلامه: " كُنتُ أتمشى لَيلًا بعد أن أحسستُ بِضيقٍ فِي صدري مِن تِلك الشَّقةِ اللّعينة، كنت يائِسًا بعد أن تصفحت ألبوم الصُّور فلفت انتباهي صور لأصدقائي الرّاحِلين وحتى لِعائِلتي...".

- ألم تُخبرنِي أنَّك تخلصت مِن كلّ شيءٍ له ارتباطٌ بِماضِيك؟ ألم تعِدني أن تُحرِق كلّ شيءٍ يُعيدك بالذّاكِرة للخلف؟

- أجل فعلت، لكِني لم أستطِع التَّخلص مِن ألبوم الصُّور، فالماضي تاريخي أنا وهو وُجودي هنا لو أنكرته كأنِّي أنكرت وجودي وناقضتُ ذاتِي، لن تفهم مدى صعوبة الأمر ما لم تُجرِّبه، لقد حاولت كَثِيرًا صَدِقني، سرت رعشةٌ فِي صوتِه وهو يلفظ آخر كلماته..

- اهدأ يا ألبارت حسنا حسنا لا عليك، تنفس..

تنفس الصُّعداء، وأكمل حديثه قائِلًا: " تمالكت نفسِي بِصعوبةٍ وهدأتُ مِن نفسي كما اعتدت أن تفعل معي، أحسست بانقباضٍ فِي قلبي فخرجت لاستنشاق الهواء، ولِسوء حظي، كلا بل لِسوء حظهما أن التقيا بي، اصطدم بي أحد الرَّجلين وسقط أرضا، كانا فاقِدين لِوعيِهما تماما، لم أُعِره اهتِمامًا، فأخذ يصرُخ ويُنادي عليّ بِالعودة كي أعتذِر، وحالما استدرت أخذا يُلقيان الشَّتائِم علي، وحاولا استفزازي بأن قالا: "أنتم شَعبٌ وَضِيعٌ أمام قوة دول الحلفاء، غمرنا أنوفكم بِالأرض، فَجرناكم وألقينا عليكم الموت مِن السّماء فأصبحنا لكم رُعبًا"، فتذكرت دانيال، التزمت الصَّمت، لَكِنَهما لم يكُفا، بل أضافا أن قالا:" كلُّ ألمانٍي سقط وأرديناه قَتِيلًا كان يستحِق الموت بمُواجهتِه لنا، لم يكن يستحِق الحياة، وكلّ نفسٍ على كلّ ناجٍ مِنكم حرام، فكلّ ناجٍ خائِنٌ لِأهله ووطنِه ".

تقدمتُ مِن المُتحدِث بِغضب مُردِدًا، من أنت؟ هل أنت الرَّب حتى تُقرِر من يَستحِق العيش مِمن لا يَستحِقه؟ من أنت حتى تُهين قتلانا؟

تذكرتُ كلَّ شخصٍ عرِفته قَرِيبًا كان أم بَعِيدًا، المهم أنه قاتل الأعداء، فقمت بِلكمِه وأرديتُه أرضًا، فردّ الثَّانِي نحن سادتكم وقادتكم أيُّها الغبي، وقام بِركلي، التفتت له فِي ثورةٍ

مِن الغضب وانهلت عليه بِوابِلٍ مِن اللَّكمات حتى كِدت أُفقِده الوعي لَكِن الثاني نَهض وأخرج سِكِينًا وحاول طعنِي مُتمتِمًا ستندم يا ابن... لم أدعه يُتِّم جملته كلّ شيءٍ إلّا شرف عائِلتِي أخذت قبضتي مجراها لِوجهِه لم أتوقف أبدًا، غِشاءٌ أسود أُسدِل على عينيّ، أخذت منه الخنجر وطعنته المرة تِلو الأخرى، لم أجِد ما يمنعني، فِي كل طعنة رددت: "هذه لِأجل عائِلتِي، هذه لِأجل أصدقائي، الثالثة لِأجل كل قطرة دم ألمانيٍّ كنتم سببًا فِيها"، وفي الطعنة الرّابعة، "هذه لِأجل ألمانيا"، حاول الآخر إيقافِي فأخذ يصرخ أيُّها الحقِير تقدّم نحوي فاستدرت وطعنته مرتين، الأولى في بطنه والثّانية إن لم أُخطئ فقد أصبتُ قلبه وأخذت أركل رأسه وأدوس عليه بِقدمي، تناثرت دِماؤه فِي كلِّ مكان، وما إن توقفت الجثة عن الحركة أدركت ما صارا عليه وصرخت عاليًا لحظاتٌ معدودة، اجتمعت الحشود حولنا، وجاء رِجال الشُّرطة، قيدوني وساقوني إلى هنا، حققوا معِي، لكن لا فائدة فلا شيء سَيُفِيدهم فالأمر واضح هناك جريمة قتل والقاتِل بين أيديهم، فما الدّاعي مِن التَّحقِيق معي؟".

- حسنا، أخبرِني يا ألبارت، هل تشعر بِتحسن، لم تزرني منذ آخِر يوم، مضى أكثر من شهرين؟

- أنا، لا أدري، نظر للسقف وضحِك عالِيًا، لِيصمُت بَعد حِين وقد ارتسمت نظرة الألم على وجهه، الأمر يزداد سوءً يومًا بَعد يوم يا دكتور، الأصوات تَزداد، الكوابيس لا تتوقف، نفس المشهد يُعاد كل ليلة، نفس الأحلام التِّي أخبرتُك عنها في أول يـومٍ لِي كمـريض لـك، أُحـاول أن أبـقى بِخـير، لَكِـني أصبحت أراهم الآن حتى فِي فترة يَقظتِي.

- هل تتناول الدواء الذي وصفته لك سابقا؟

- أجل، لم أنقطع عنه طيلة هذه الفترة، حتى أنّي أدمنت عليه، أصبح كالأكل والشّرب يستحيل عليّ الاستغناء عنه، مع ذلك لم تنته مُعاناتي.

- لم لم تعد لي يا بني؟

- لا يُمكِنني ذلك، أنا عبئٌ ثَقِيل، سيأتي يوم تمل فِيه مِنِّي، تتعب ولن تُصبِح قادِرًا على تَحمُلِي أكثر.

- كنت لِأتحملك، كما ترى ليس لدي همٌ، لا زوجة تنتظر عودتي أو تُقابِلني بالصُّراخ فَتُنكِد عيشي وتُنكِس علي حياتي، ولا أولاد أهتم أو أمرض بِمُستقبَلِهم، عملِي كل شيء، وأنت جزءٌ منه يا ألبارت.

- لا عليك، لازلت أرى أنّ ما قمت بِه هو عين الصَّواب.

- حسنا كما تراه مُنَاسِبًا، سُؤالٌ أخِير بَقِي عالِقًا فِي عقلي، لِم ازددت خَوفًا حِين أردتُ حقنك بِالمُهدِئ؟

قصَّ عليَّ ما مرَّ به داخل معتقلات السوفييت، والعذاب الذي لقيه، ومِن بَينِها أن قاموا بِحقنِهم بِالعديد مِن أنواع المسكنات والأدوية كانوا يَفقِدون أنفسهم على إثرها، الإحساس بِالألم يزول، كل ما يشعرون بِه هو الفراغ.

- آسِف لم أكن أعلم مدى سوء الأمر وإلّا ما كنت استخدمتها، وحاولت بِطرقٍ أخرى أقل ضررا،

- لا عليك يا دكتور، لقد مضى كما ترى، ابتسم وطأطأ رأسه بعدها، وقال: "فِي رأيك يا دكتور هل هم راضون عني؟"

- من؟

- عائلتي وأصدقائي، مات الجميع في سبيل الوطن إلّا أنا تخلفت؟ هل سيكونون راضين عني؟

- بالطبع هم كذلك، فلطالما أحبوك، وإلَّا لما اجتمعوا مِن حولك يا بني.

- هل أنت متأكِد؟

- كل التأكِيد، ابتسم مرةً ثانِية لَكِنها كانت صادقةً هذه

المرة وتُنِّم على الإحساس بالسَّعادة، فَرِحتُ لِذلك، الآن يا ألبارت يجب أن أنصِرف، سَأُحاول تخفِيف عُقوبتِك بِقدر ما يُمكِنُني، باستخدام نفوذي ومختلف الوصفات والملفات التِّي تدّل على شدة المرض وأنّ الأمر خارج عن مقدرتك.

- شُكرًا جزيلًا لن أنسى كلّ ما فعلته لِأجلي يا سيدي، سأسعى أن أكون شَخصًا أفضل.

ودعته وانصرفت بَعدها، أطلعت المحقق على كلّ ما علّمته والظَّاهر أنّه استمع لأَغلبِ حدِيثنا، غادرت المخفر واتجهتُ صوب عِيادتي، لم أُقابِله بعد تلك اللَّحظة حتى يوم جلسته في المحكمة...

الفصل الرابع

بعد يومين...

تمّ تعيين مُحامٍ خاص لِألبارت، في حين تمّ استدعائي لِأكون شَاهِدًا على مرضه العُضال، والحال المضطربة التّي هو عليها.

كان الحضور لا يتعد الأربعِين شخصًا، سبعةٌ منهم ضِمن هيئة المُحلفِين، القاضي وعلى جانبيه مُستشارَيْه، الكاتب العام، هيئة الادعاء المُكونة من المدعي العام وشاهدان، هيئة الدّفاع والتي ضمت المُحامي وأنا كشاهِد، أمّا الأربع والعشرين شخصًا الباقية فكانت عبارةً عن حضور من مختلف طبقات المجتمع، من بينهم بعض من رجال الصحافة.

- لتفتتح الجلسة، القضية رقم مائة واثنان مِن العام الجاري، ودق القاضي بِمطرقته الخشبية على الطَّاولة بعد أن أتمّ كلماتِه، لِنبدأ مع المُدعِي العام لك الكلِمة، في نفس الوقت كان الكاتب يُنصت بإمعان ويُدوّن كل ما يتم التّفوه

به، وكذا رجال الصّحافة كي لا يفوتهم أي شيء.

- سِيادة القاضي، السَّادة المُستشارون، نحن أمام جَريمة قتِل قامَ بِها السَّيد ألبارت تيلي، حيث وُجِدت الضَّحيتان فِي زُقاق أحد الشَّوارِع وقد تعرضا للاعتداء بِطريقة وحشية.

- لم أعتدِ عليهما بل هما من افتعلا الشِّجار...

- لا تتحدث ما لم يُطلب مِنك ذلك، توجه القاضي بكلماته لِألبارت، التزم الصّمت وإلّا ستخسر حقك فِي الدّفاع، أكمل أيُّها المُدَعِي العام..

- سيدي القاضي، كما كنت أقول سابِقًا تعرضت الضَّحِيتان للقتل بطريقةٍ وحشية، فآثار الطَّعن والضَّرب خير دليل، حيث أثبتَ التَّحقيق واستِنادًا لِأقوال المُجرِم، أنَّه نال من الأول وانهال عليه بلكم مُتواصِل لِيطعنه في نهاية المطاف بِالسِّكين أكثر من طعنة حتى أرداه قَتِيلًا، لِيفرغ للثَّاني ويطعنه هو الآخر.

ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه ألبارت ليتبادل أطراف الحديث مع نفسه: الأمر هكذا إذن، حتى حديثي مع الطّبيب استعانوا به ضدي، فهي حقائق صادرة مني لا يُمكنني إنكارها.

في حين واصل الادعاء الهجوم: كانت الطَّعنة كفِيلة بِقتله إذ أصابت أحد الأوردة القرِيبة مِن قلبه كما أثبت الطِّب الشَّرعي، كانت إصابةً موفقةً منه وهذا دليلٌ واضِحٌ على أنَّه قَاتِلٌ مُدرب، بالرّغم من الإصابة الخطيرة التِّي سببها لِضحيتِه الثَّانية إلّا أنّه لم يكتفِ، بل زاد على ذلك أن قام بركل وجه الضّحية مرات مُتتالية بلا رحمةٍ ولا شفقة، حتى أتلف مُعظم ملامِح وجهه، وبِهذا نكون أمام القتل العمد فقد سلب روحين من هذه الحياة وحرم صاحبيها الحق في العيش، ولَدينا فِي إثبات ذلك شاهِدان...

- لِيتفضل الشَّاهد الأول، هل تُقسِم أن لا تقول إلَّا الحقِيقة؟

- أجل سيدي القاضي أُقسِم.

- أخبرنا كل ما تعرفه دون نِسيان حرف..

- سَيِدي، مرّت الأحداث بِسُرعة فائِقة، كانت السَّاعة الثَّامنة ليلا، كنت مارا بِالمُصادفة فَلمحت الرجلين وهما يدخُلان الزُّقاق بعد أن خرجا من إحدى الحانات الليلية، كان القاتِل قادِمًا باتجاهِهما واصطدم بِهما عمدًا، فأخذا يُلقيَانِ عليه اللَّوم، لا أذكر أنّهما شتماه حتى.

كلّ الأمر أنهما طلبا منه الاعتذار لَكِنه أبى وانهال عليهما بالـضّرب حـاولا الـتَّملص منـه لكنـه أخـرج سِـكينًا وقـضى عليهما، حين رأيت المشهد سرى الخوف فِي سائر جسدي بعد أن رأيت جرِيمَته الوحشية تِلك، واتجهت نحو مخفر الشُّرطة لِأبلِغ عنه وأدلِي بِشهادَتِي.

شُكرًا على تَعاوُنِك معنا سَيِدِي، ابق بين الحضور لعلنا نكون بِحاجتِك مرة ثانية، وبينما همّ بالانصراف، أخذ ألبارت يضحك رادا على قول الشّاهد: هُراء، كَذِب، لستُ من افتعل الشِّجار..

لِيُخرِسه القاضي بِحزم أكثر هذه المرة، إن تفوهت بِكلِمة مرةً ثانِية، فستُغلقُ القضِية بِإدانتك..

- هل أستدعي الشّاهد الثاني؟

- أجل، فلتطلب حضوره أيّها المدعي العام.

دخل الشَّاهد الثَّانِي وتقدَّم إلى الأمام، والمُفاجأة أن كانت امرأة...

- هل تُقسمِين على قول الحق دون سِواها؟

- أجل أُقسِم سِيادة القاضي، كانت السّاعة حوالي الثّامِنة لَيلًا، كنت جَالِسةً أُطِل من نَافِذة مَنزِلي المُشرِفة على الزُّقاق

أُراقِـب النُّجـوم تـارةً، والمـارة تـارة أخـرى، حِـين لَمحـتُ الـضَّحِيتين وهمـا يَمـرّان مِـن زُقاقِنـا، وأعـادت المـرأة سرد الأحـداث بِطريقـة مُطابِقـةٍ لِمَّا قاله الـشَّاب الأول، ما جعـل صمت الحاضرين ينكسر، يا له من وحش، شيطان تلبّس هيئة إنس، أنّ له أن يقوم بهذا؟ أين الإنسانية؟

فاستشاط ألبارت غضبًا وتمالك نفسه بِصعوبة، أدركت حِينها أنّ الأمر سَيخرُج عن السَّيطرة...

- شكرًا سَيدَتِي لِتعاوُنِك معنا..

- همُّنا سَيدِي القاضي أن تَجِد العدالة مَجراها، فالقول اشتهر بأنّ السَّاكِت عن الحق شَيطانٌ أخرس...

- ومنه سِيادة القاضي وحسب المادة 211 التِّي تنص على مُعاقبة مُرتكِب الجريمة بخمس سنوات سِجن فما فوق وقد تصِل إلى السِّجن المؤبد، رد المُدعِي العام:" نطلب من سِيادتكم أن تُلقوا بِه خلف القُضبان حتى تَجِد العدالة مَجراها".

- لِنستمِع الآن لِهيئة الدِّفاع إن كان لَديها ردٌ على الاتهامات المُوجهة لها، التفت القاضي بِأنظارِه نَحونا، لِيتِمّ كلامه: "ثمَّ نرى الحكم المُناسِب".

وقـف المُحـامِي، عـدَّل مِـن هِندامـه واعتـدل في قامَتِـه، سَـيِدِي القـاضي نَحـنُ لا نُنكِـر أنّ مُـوكَلِي السّيد ألبارت تـيلي، قـد قـام بِجريمـةِ قتل، لَكِـن لـو أنَّنـا نَـستمِع لِلقصة الحقيقية مِـن لِـسانِه أليس أفـضل مِـن الاسـتِماع لِعـدة أشـخاص لا نَدري عنهم شيئا، أرجـو مِن حَضرتِكم الاستماع لِتصريحات مُوَكِّلي.

- الأمـر واضِـح سـيدِي القـاضي، سَـيُنكِر الاتهـام بِلا أدنى شك، وكِلِي ثِقةٌ بِذلك.

- ما ردُّ هيئة الدّفاع على الادعاء؟

- لَقـد أثبتنـا أساسـا أنّ الـسيد ألبـارت ارتكـب الجريمـة واعترفنا بِذلك...

- إذًا مـا الـدَّاعِي مِـن الـدّفاع إن كنـتم لا تُنكـرون مـا يَقـع عليكم؟

-الأمــر واضــحٌ لِلعيــان نــوّد تــصحِيح بَعــد الأقاويــل والادعــاءات الــتِّي لا تملــك مِــصداقيةً قــط، كمــا نحــاول الالتماس لتخفيف الحكم الذي سيقع عليه.

- حسنا إلِيك الكلمة سيد تيلي، أعطى القاضي الكلمة لألبارت.

- شكرا سِيادة القاضي، ردّ ألبارت بهدوء: كان الوقت آنذاك الثَّامِنة لَيلًا حِين غادرت شقتِي لِاستِنشاق الهواء.

- اعتراض: لو خرجت لاستنشاق الهواء لِمَّا كنت تَحمِل سِكينًا، توقف بالله عليك، أوقف المُدعي العام قول ألبارت لِيُكمل هو: لقد كنت تدري مُسبقًا أنّ غرِيميك سَيمُرانِ مِن هناك، وأعددت لِجريمتك جيِدًا، وقد رآك الشَّاهد الأول وأنت تُخرِجه، لِتطعن به ضحيتك، أنت قاتل لا تُنكِر حقيقة ذلك...

- كذب، قولٌ باطِل، لم أكن أنا من أحضر السِّكين، رد ألبارت بِحزم: أقسمُ بِرب الجحيم أنِّي لم أحضِره معي، خرجت من منزلي لأستنشق الهواء فصادفتهما فِي طريقي، اصطدم بي أحدهما فوقع أرضًا، فأخذا يُهِينانني ويرميانني بِمختلف الشّتائِم، هل كان علي أن ألتزم الصّمت والكِتمان بدل الدِّفاع والرّد على إهانتهِما؟

- اعتراض آخر: لقد ارتطمت بِه عمدا وأنت من افتعل الشِّجار لا تحاول عَبثًا، فقد أثبت الشا... لم يُتِمَّ المُدعي العام قوله.

- اعتراض على اعتراضه سيدي القاضي، كان هذه المرة المحامي، هذا اعتداء لفظي واضح اتجاه مُوكلي، ونوعٌ مِن

التَّضلِيل، وهـو يُشكِلُ نوعًا مِن الخطر على السّيد ألبارت، والقانون يرفض ويعاقب على هذا النّوع من الاعتداء حسب الفرع 234 من القانون الجِنائي.

- اعتراض ضد المُحامِي: أنت بِهذا تُساعِدُ المُجرِم على تغيير الحقائِق وتزويرها، وهذا يندرِج ضمن المساعدة على تضليل العدالة والقانون يُعاقِب عليه حسب نص الفرع 339 من القانون الجِنائِي، بدا الارتباك على وجه ألبارت، فالأمر يخرج عن السّيطرة شيئا فشيئًا...

لِيرُّد عليه المُحامِي بِكل هدوء وبُرودة أعصاب، أظنّك بِحاجة لِتوجيه قولِك للشُّهود الذين استعنت بِهم حضرة المُدعي.

- ماذا تقصد من وراء كلامك أيّها المحامي؟

- سيدي القاضي وردنا أنّ الشّاهد الأول الذي استعان به المدعي العام سلفا قد غيّر من بعض الأقوال التّي كان قد أدلى بها مقارنة بما صرح به سابقا لدى المخفر، في سجل التّحقيق ورد أنّه صرح بأنّ الفقيدين حاولا استفزاز ألبارت، ولمّا احتدم الأمر قرر الانصراف، ولو نظرنا في السّجلات لوجدنا هذه الحقائق مذكورة والمفتش فيشر يعلم بهذا الأمر أيضا إذ أنّه قد أطلع الدكتور أدريان بهذه الحقائق، فما

السّبب في أن يُغير الشّاهد أقواله بين ليلة وضُحاها؟ حتى يُصرح بأنّ الضحيتين لم تطلبا شيئا عدا الاعتذار، وأنّه شهد كل شيء حتى مجريات الجريمة؟

- هل هذا صحيح أيّها المدعي؟

- لا أعلم الحقيقة كاملة سيدي القاضي..

- هل تراها مهزلة هنا حضرة المُدعي... لم يُتّم القاضي جملته...

- الشّاهد فرنسي الجنسية...

تغيّر لون القاضي واتسعت عيناه، أخرسه تصريح المدعي الأخير، اااه حسنا، الشّاهد حرّ فيما يُدلي به، أليس كذلك أيّها... أليس كذلك ههه وأطلق ضحكة ساخرة..

- لم يجِد المُحامِي ما يرّد به وصمت، تراجع فِي تلك اللحظة بنظره للقاضي وقال هلّا سمحتم لِموكلي بمتابعة سرد الأحداث؟.

لم يستوعب ألبارت ما قد حصل، أصبح اسم فرنسا مصدر رعب لكل ألمانيا، هذه هي الحقيقة المرّة..

- لِيتفضل الكلام لَه، فلتُتِم ما بدأت سيد ألبارت.

- كما كُنت أروي سابِقًا، وأخذ يُواصِل حديثه مُطابِقًا لِما دار بيني وبينه في غرفة التَّحقِيق، وما إن فَرَغ، أضاف المُحَامِي، وبِهذا سِيادة القاضي فإنّ مُوكِلِي كان يُدافِع عن نفسِه وشرفِه، لو كان الضحيتان على قيد الحياة لكانا مكانه هنا بتهمة انتهاك كرامته ومسِّها حسب المادة رقم 1، فلو كان أيّ أحد مكانه، لفعل نفس الشّيء.

- الجريمة هي الجريمة، لا تُحاول أن تُصوِغ فِعلته الشّنِيعة، هو بِتصرفه انتهك المادة رقم 2 التِّي تنص على أنّ لِكل شخصٍ الحق في الحياة والسَّلامة..

- أظنّ أنّ كلامِي كان مُوجهًا للقاضي وليس لك حضرة المُدَعِي..

أنا أعترِض على إهانتِك هذه، القانون لا يَحمي المُغفلِين من أمثاله، لو أنَّه تقدم بالشّكوى ضِدهما لما كان هنا الآن...

- لأي حال وصلنا إليه، اتجهت كلّ الأنظار نحو النّاطق، تعترض على رد المُحامي بحجة أنّه إهانة لك، لما لم تعترض حين أهانتك فرنسا؟ هاه، هل تغاضيت عن إهانة الغربي والأجنبي ورفضت إهانة الشّقيق...

نظر القاضي لألبارت فاغرا فاه لم يستوعب الحضور ما حصل، ليصرخ القاضي بعد لحظات فليُخرسه أحدكم، أنت

بهـذا تُعـرض نفـسك للخطـر، أي كلمـة خارجيـة سـتؤثر في الحكم عليك..

- لنعـد حيث توقفنا، الكلمـة كانـت معـك أيّهـا المُـدعي، أكمل رجاء ولنتغاضى عن ما قاله المتهم قبل قليل..

- كنـت أقـول سـيدي القـاضي بـأنّ القـانون لا يحـمي المغفلين.

- ماذا لو كان مُوّكلي مُغفلًا حقًا ولا يُجِيد التَّصرف؟

أثارت كَلِمات المُحامِي الأخِيرة الدّهشة لِيتساءل القاضي بلِسان الحضور، ماذا تقصد؟

- مُوّكلي مرِيضٌ نفسي؟

الفصل الخامس

وسط دهشة الحضور، عمّ الصَّمت بعد تصريح المُحامِي الأخير..

- أجل حضرة القاضي موكِلي مَريض نفسي، يرتاد عيادة الدُّكتور أدريان كراون منذ فترة، ولدى الطّبيب مِلفاتٌ تُثبِت صِحة ذلك، وهو بين الحضور الآن، يُمكننا استدعاؤه لِيُدلِي بِشهادته أمام حضرتِكم.

- حسنا، فليتقدم الدُّكتور كراون إلى الأمام.

تقدمتُ نحو الأمام تلبيةً لِنِداء القاضي، كي أُشهد على حَقِيقة الوضع الذي يُعانِي منه ألبارت..

- هل تُقسِم على قول الحق مهما كان؟

- أجل.

وضعت يدِي اليسرى على الكتاب المُقدس ورفعت اليُمنى وأديتُ القسم: "أقسِم أن لا أقول إلَّا الحق".

- هل السَّيد تيلي مُصابٌ باضطرابات نَفسيةٍ حقًّا كما يدعِي المُحامي؟

- أجل سَيدي القاضي، السّيد ألبارت مَريض تحت إشرافِي منذ فترة ليست بالطّويلة جدا لَكنها كفيلة على أن أُدرك الوضع الذي هو عليه ومدى تأثيره في الحياة الاجتماعية، حاله تزداد سوءً يومًا بعد الآخر، ونظرًا لِما يُعانيه فإصابته تعود لِلتّأثيرات الجانبية للحرب، فقد كان لها وقعٌ وأثرٌ كَبِير في نفسه، إذ عانى على إثرها الكثير إذ فَقَدَ أصدِقاءه وعائلته، كما ذاق مُرّ التَّعذيب في الأسر، وهذا ما جعلنا نرى بأعينِنا ما يعيشه الآن من اضطرابات نفسية يصعُب التنبُؤ بها، وهاهي ذي وثائِق تُثبِت ارتياده المُتواصل على عِيادتِي.

- سُؤالٌ مُوَجهٌ لِلسيد ألبارت، توجه المُدَّعِي بِكلامِه للمتهم، هل شَاركت في الحرب سيد تيلي؟ فرّد إيجابا بالإيماء، حسنا، هل قتلت أُنَاسًا فِيها؟ فرد بِهدوء: ماذا تقصد؟ أظن أنّ الأمر واضح... في الحرب تقتل وتُقتل وما إن أتمّ حتى ثار غضبا: طبعًا قتلت وحتى أنِّي قد قتلت العشرات مِنهم..

- كيف كان شُعورك آنذاك؟ ما أعنيه هو ما الذي كنت تشعر به وأنت تَسفِك دماءهم؟

- ههه حقد، كره، بغض، كنت راضٍ عن نفسي، راض عمّا أفعله، فقد كانوا يستحِقون الموت كونهم يسعون لاحتلال أرضنا واغتصابها، وكذا ما سببته من مُعاناةٍ لنا ولشعبنا، فقد قتلوا منا الآلاف، من مِنَّا لم يُقدِّم أحد معارِفه ضَحِيةً لِهذه الحرب، هل كان يجب أن أرضخ وأصمت؟ أتغاضى عمّا يحدث، أُراقِب وأنتظِر نصيبي فيها ودوري في الموت؟

- إذًن... فقد كنت حاقِدًا على دول الحلفاء؟

- بالطّبع على كلّ من وقف ضِدّ الرايخ وكان له يدٌّ في سُقوطها، وكنت لأقتل منهم وأقاتلهم اليوم وغدا وبعد غدا لو أنّ الحرب لم تنته، ألم تكن أنت لتفعل ذلك؟

تغاضى المُدعي عن الرّد على سؤال ألبارت وقال: أظن أنّ هذَا سببٌ كافٍ لِيَقوم بارتكاب تلك الجريمة حضرة القاضي يبدو لي أن القضية حُلت.

اعتراض سِيادة القاضي: المُدعي العام مُتأثِر بالقصص والرّوايات الهزلية على ما يبدو، أنت بِهذا تَربِط بين واقعتين لا صِلة لإحداهما بالأخرى، فما هو الرَّابط الذي يجمع بين

الضّحيتين وما عاناه ألبارت في الحرب؟ كما أنّه قد ردد على مسامعنا قبل قليل أنّه سيقتل أشخاصا آخرين لو أنّ الحرب لم تنته، هناك لو في الجملة حضرة المُدعي أم أنّك تحتاج لشرح أكثر تفصيلا؟ مُوكلي مُدرك للوضع الذي نحن نعيشه لكن أنت لا تُدرك ما نحن بصدده.

- يبدُو أنّك لم تُدرِك الوضع أيُّها المُحامي، هناك دائما خطُ وصل، ما الدّول التّي شاركت في الحرب تحت اسم دول الحلفاء؟ ألم تكن فَرنسا إحدى هذه الدّول؟ ما الذي يُثبِت أنّ ألبارت لم يَعدّ حاقِدًا وكارِهًا لهم؟ أخبِرني...

- يبدو أنَّك لم تكن تُنصِت جيدًا أيُّها المُدعِي أنّ وكيلي كان يُدافِع عن نفسه، ويبدو أنّك لا تعلم معنى مريض نفسي، وكي أفيدك قليلًا، المرض النَّفسي هو اضطرابات في الصِّحة العقلية، والشّائع أنّها مجموعة كبيرة من أمراض الصّحة النّفسية التّي تُؤثر على مِزاجك، تفكِيرك وحتى سُلوكِك، لَها أعراض كثِيرة ومتنوعة لا وقت لديّ لِأخبرك عنها كلّها وبالتّفصيل، لكن من بينها الغضب الشّديد، العدائية والعنف، وهي نفس الصّفات التّي قد تؤدي لِقتل شخص ما في ثورة غضب، اللاّوعي هو من يتحكم بك، وبهذا لم يكن لِموكلي القدرة على السّيطرة على تصرفاته والتّحكم بِها فهي خارجة عن إرادته...

أيُّها المُدعي لو كنت مكان مُوكِلي ما القرار الذي كنت لِتتخذه، ما التَّصرُف الذي كنت ستقوم به آنذاك لعلنا منكم نستفِيد؟

تردد المُدعِي بِدايةً، لَكن ردّ بعد ذلك بِهدوء وثقة: أظنّ أنِّي ما كنت لِأقع في مثل هذه المواقف، فأنا لست من الأشخاص الذين يسلكون الطّرق المشبوهة لِيختفوا عن الأنظار، لا عمل لي في الأزقة حضرة المُحامِي.

- لا عليك، أفهم جيدًا سبب تهرُبِك من الإجابة، لو كنت مكانك لفعلت نفس الشّيء كي لا أخسر القضية، بكل بساطة لو كان أي أحدٍ آخر مكان السّيد تيلي لقام بما قام به وقد يفعل أكثر مِن ذلك...

- لا تُلقِي أحكاما مِن رأسك أيّها المُحامي فهناك الكثير من الأشخاص يُحبون السَّلام وكانوا بِدورهم لِيتجنبوا شِجارًا لا فائِدة منه.

لِتعتلِيّ نظرةُ الغضب على وجه ألبارت: لا فائدة منه، اللعنة عليك أيُّها المدعي الوضيع، إذًا أنت تقبل أن يُشمت أحدٌ بِبلدك ووطنِك، ثمّ يتطاول على شرفك ورضك ويمس بكلامِه السُّوقِي أمك، إن كنت ستقبل فأنت بِلا شرف...

- أيُّها السَّافِل من تكون حتى تَصِفني بالوضيع؟ أنت حشرة صغِيرة، أنت نكرة في المجتمع...

- فليصمت الجميع، أسكت القاضي كِلا الجانبين بحزم وغضب، نحن هنا للنّظر في حكم الجاني لا افتعال المُشاجرات.

- أودّ أن أرفع شكوى سيدي القاضي على السّيد ألبارت تيلي، كونه قام باعتداء لفظي بحقي.

- إذًا فالقانون أصبح يُعاقِب من يُدافِع عن وطنه وشرفه، وأصبح يُمجِدُّ السَّفلة الذين باعوا تُراب الوطن وعرضه باسم الوضاعة والنّذالة التّي بات يُطلق عليها القانون، ردّ ألبارت بغضب ممزوج باليأس والحزن، وواصل مُتأسِفًا على حال القتلى، إذن... فقد ضاعت دِماء أبطالنا في ساح الوغى سُدى، لِيعتلِيَّ الحكم ويتولى القضاء مجموعة من القِردة، سَقط أصدِقائِي الواحد تِلو الآخر يُرددون "ألمانيا فوق الجميع"، لِينادي عزيزي المُدعي الجميع فوق ألمانيا وإن لم يُصرِح بِذلك لكِنه أفصح عنه بِتصرفِه الوضيع... طأطأ القاضي رأسه والتزم الصمت...

- كيف تجرأ؟ هل وصل بك الحد إلى أن تتطاول بِلسانك حتى سِيادة القاضي؟

- أصمت دعني أتكلم أنا عليك اللعنة، أشار بيده إلى قلبه وقال: كلّ شيءٍ مدفونٌ هنا، ماضٍ، كل ما عِشته أنا لا أنت، الخوف والألم، الحب والنّدم، ليالٍ مِن المعاناة تحت القصف والغارات ننام، وأي نومٍ وأنت خائف أن تطالك يد الأعداء في غفلةٍ منك، ثمَّ تُدرِك الحقيقة بعد فوات الأوان، الحرب لا ترحم أحدا صغيرًا أم كَبيرًا كان، ليست الحرب هي السبب بل قلوب دول الحلفاء، فهل نُقابِلهم نحن بالحب والسلام في حين سَقونا الموت وكؤوس الدّماء؟ سَرقوا مِني كلّ قريب، بيتر، فيليب، رفاييل، هكذا بدأ كل شيءٍ بالتَّرتِيب، دانيال، دِيفيد، هاس، مولر، سيمون، كيفن، أخذ يضحك بألم وحزن يعتصر آخر ذرة بَقيت فِيه، نظر إلى القاضي بعيون ماتت فِيها المَشاعِر، لم يبلغ الثانية عشر من العمر، فهل تَركوه على قيد الحياة؟، كان أشجع منِّي أشجع من كلِّ الحضور الموجودين بيننا، أمي، أبي، وحتى أخواي... وردتان ذبلتا قبل أن تتفتحا حتى، وآخرون الكثيرون من بني قريتي ليس قريتي وحدها بل كل ألمانيا وأخذ يرتجف، لوهلة ظننت أنّ الأمر خرج عن السَّيطرة لكنه تماسك، وردد كلماته الأخيرة بصوت متقطع مُرتعش، ثمّ يأتي أجنبيٌّ لِيُهين دولتي، هل أرضى؟! برب السّماوات لن أرض، وانهار بالبكاء، أثارت كَلِماته كلّ الحضور حتى القاضي والمدعي، وانهالت

عليه الجموع بالتّصفِيق... عدا الشّاهد الأول كان يُراقب بصمت مُجريات الجلسة.

- كَلِماتك كانت شاعرية حقًا، لَكِن لابد من تحقيق العدالة سيد تيلي، لقد قتلت شخصين ولابد أن تنال عقوبتك.

- أعلم هذا سلفًا وأرضى بحكمي.

- ألّا تظن أنّك تدِين باعتذار لِلمتهم أيّها المُدعي؟

- معك حق حضرة المُحامي يبدو أنِّي قد أخطأت في تقديره، سيد ألبارت أرجو أن تقبل اعتذارِي..

كان ألبارت خائِر القِوى: لا عليك، كلّ ما أوده منك أن تسحب كلامك السَّابِق، فالوطن أغلى مِن أرواحِنا وإلّا ما اختار الرّاحلون الموت فِي سبيله.

- معك حق، لذا أنا أسحبه.

أخذ القاضي يتناقش مع مُستشاريه حول قرار الحُكم، ثمّ لَوح بِمطرقته..

الحكم: بعد النّظر في الحقائق المطروحة والاعتراف الصّريح من المتهم بِجريمته، وبأخذ حالته المرضية بعين الاعتبار والوثائق الطّبية التّي تُثبِت صحة ذلك، فإنّ القرار

سيكون حسب المادة 211 كالتَّالي: السَّجن لِمُدة عشر سنوات وبالنّظر لِمرضه يُمنح له حق الإعفاء مِن الأعمال الشَّاقة، رُفِعت الجلسة.

غادر القاضي ومستشاروه المجلس، حين همّ رِجال البوليس لِأخذ البارت للسّجن اقترب منه المُدعي وقال: سؤال أخير سيد تيلي، ألّا تشعر بِالنّدم حِيال ما اقترفته؟

ابتسم ألبارت وردّ: لست نادِما على شيء، فكلّ ما فعلته أنّي دافعت عن شرفي ووطني، وقد نالا ما يستحِقانه بالتَّطاول علينا.

- يا ليت كلّ الألمان يُفكِرون مِثلك، لو كانوا كذلك لحالفنا الحظ رُبما وما خسِرنا الحرب عِندها، ثمّ انصرف ألبارت رُفقة الشّرطة فِي حين انحنى المُدعي: شُكرا سيد ألبارت.

انهال رِجال الصَّحافة بطرح الأسئلة والتقاط الصّور، ما أعاق حركة السّير، كان الإعياء باديا في وجه ألبارت وكانت تلك الزّحمة تزيد من سوء حاله، وماهي إلّا لحظاتٌ حتى أُغمِي عليه وَوقع أرضا.

- ابتعدوا، ابتعدوا، صرخت بِأعلى صوت: أنا طبيبه، دعني أفحصه، تقدمت منه، وضعت يديّ على معصمِه،

كان نبض قلبه مُتسارِعًا، إلى جانب أنّه يتصبب عرقًا نفس الأعراض التّي ظهرت يومها، افسحوا المجال كي يستطيع التّنفس، ثمّ توجهت بِخطابي للبوليس احملوه بِسرعة مِن الأرض، هو بحاجة لمجال لاستنشاق الهواء، حقنت فيه مهدئا: سيكون بِخير بعد أن يستيقظ، تفرقت الحشود، وتمّ نقل الجاني للسّجن حيث بدأ حياةً أخرى.

الفصل السادس

تـصدرت صـفحات الجرائـد قـضية مُحاكمـة ألبـارت في صبيحة اليـوم المُوالي، وتـردد الخطاب الـذي ألقاه والحـوار والنّقاش المحتدم الذي دار في المحكمة على كلّ لسان...

***

مضت السّنِينُ العشر وانقضت فترة السِّجن...

فِي صبيحة يـوم الخميس الموافـق لـ 20 مارس من عـام 1958، غـادر ألبارت السِّجن، لكنَّه لـم يَكـن نفس الشَّخص الذي سبِق وعَهِدناه، بل شخصا آخـر بِمعنى الكلمة، أتى إلى عيـادتِي في اليـوم التَّـالي لِزيـارتِي، استـشارنِي في أمـر مُتابعتِـه للـدّواء بعـد أن شـكرني عـلى تـوفيره لـه طيلـة العـشر سـنوات الـتّي قـضاها في زنزانتـه، نـصحته أن يواصـل تعاطيـه تَحـسُبًا لِأي وضـع، لـم يطـل الحـديث بيننـا كثيرًا ثـمّ اسـتأذن مِـنِّي وانـصرف، مـضت أشـهر وانقـضى العـام، لِتتـصدر في العـام الجديد الأخبار عن مجموعة جَرائِم مجهولة المصدر حيَّرت رِجـال الـشُّرطة أغلـب ضـحاياها كـانوا مُـدانين سَـابِقًا ومِمـن

كانت لهم حياة ضمن السُّجون...

***

فِي الرّابع من جانفي سنة 1959، وُجِدَ المُجرم السّابق ويليام شفارتز المُدان بِتهمة سرقة مَقتُولًا فِي شَقتِه، وتُركِت معه كَلمات تم تدوينها بدِمائِه على حائط الغرفة التِّي عُثِر عليه بها مجهولة المصدر كان فحواها:

" Teufel zurück"

وتعني:

" الشّيطان يعود "

***

في التّاسع من فِيفري سنة 1959، أعلنت الشّرطة الوطنية عن إيجاد ماريو شافير والذي اتُهم سابِقًا بِجريمة قتل وتمت إدانته بعشر سنوات سجن لكن تم الإفراج عنه بإطلاق سراحٍ مشروط، مَقتولًا فِي سيارتِه، وقد نُقشت على نافِذة سيارتِه نفس الكلمات التّي سبق وعُثِر عليها عند مقتل ويليام، تم خطُّها بِدمائه، وقد أشار المُحققون أنّ القاتل هو نفس الشّخص وهم يُواجِهون سلسلة جرائِم مُتتالية.

استمرت هذه السلسة وطالت ثمانِية أشخاصٍ آخرِين.

واستمرت الحال طيلة عام كامل دون إيجاد أثرٍ للقاتِل، كلّ ما كان يربط الضَّحايا أنّهم كانوا مُدانِين بِجرائِم وذوي سوابِق عدلية، قضوا حكمهم بنفس السِّجن وتم الإفراج عنهم فيما بعد، والمُحيِّر فِي الأمر أن كان يوم وفاة الواحد منهم مُطابِقًا لِيوم خروجه من خلف القضبان، وما أعاق التنبؤ بالضّحية القادمة، أن صادفت أيام انقضاء حكمهم انتهاء فترات عدة أشخاص، حاولت الشُّرطة التّحكم في الوضع لكِن دون جدوى، لِتنتهي هذه السّلسلة بإيجاد ألبارت مَشنوقًا في غرفتِه في صبيحة يوم الأحد المُوافق لعشرين مارس 1960، مُخلِفًا مِن وراءه رِسالةً صَريحةً مضمونها:

ستكون هذه آخِر كلِماتِي، إن كانت هذه الرّسالة بين يدي أحدٍ ما فهذا يعني أنِّي قد فارقت الحياة، أوصلها للمحقق جاك مولر وسيتكفل بتسليمها للشّرطة:

" لا داعي لأن تُرهِقوا أنفسكم في البحث عن الجاني مُفتعِل الجرائم السّابقة، فقد فارق الحياة الآن وآخر كلماته بين أيديكم، بِكل بساطة أنا المتسبب في كلّ شيء وهذا راجِعٌ لِأسباب خاصة، تمثلت فيما عشته داخل السّجن طيلة

العشر سنوات الماضية، عانيت الكثير مِن طرف ضحاياي، لطالما تعرضت للاعتداء الجسدي واللّفظي منهم ومن ذلك أن رددوا على مسمعي أنت شيطان، لِذا اخترت هذا الشّعار: " عاد الشّيطان " لم أفهم في البداية سبب تلك المُعاملة من أُناسٍ لا أعرِفهم ولا صِلة لي بهم، كرهتهم واشتعل داخلي حِقدٌ دفين أخذ يكبر يوما بعد يوم، وددت لو أتمكن من سفك دِمائهم هنا، لكن فات الأوان فقد أخذوا يَخرجون الواحد تِلو الآخر من هذا السّجن اللّعين، حَفِظت أسماءهم واحدًا واحدًا طيلة فترة حبسي، وحالما انقضت العشر سنوات كَبرت بِداخلي تلك الرّغبة في الانتقام، من شهر مارس إلى شهر ديسمبر تسعة أشهر وأنا أجمع المعلومات عنهم، السّكن، العادات اليومية، ورسمت على حسب ذلك خطتي، اخترت تواريخ موتهم لِتكون مُوافِقة لتواريخ الإفراج عنهم، كان بِرأسي سؤال واحد يتردد طيلة تلك الفترة ما السّبب مِن وراء فِعلتهم، لِم أنا دون غيري؟ لا علاقة لي بهم، لكن الأمر اتضح في نهاية المطاف وهم يَعترِفون بِكلِّ شيء قبل أن يلفِظوا أنفاسهم الأخيرة، كانت نظرة الخوف التّي اعتلتهم جميلةً جِدا لكنها لم تكن كافيةً لِتشفِ غليلي لم أتمكن من الوصول لمُبتغاي وهذا ما يُزعِجني الآن...

كانـت كلِماتـه واضـحة وضـوح الـشّمس لكنـه اختـتم رِسالته بِمجموعة كلِمات حيرت رِجال الشّرطة والمحققين لستُ الشَّيطان بل مُجرد إصبع فِي يده يُحرِكها كما يشتهي...

لطالما كنـت أكـره التّـضليل لكنـني أحبـه الآن " فيـني، فيدي، فيتشي... "

كان لِهذه الكلِمات وقعٌ غريب، كما اتجهت الأنظار إلى مجموعـة مـن الرمـوز الـتّي لـم تُفهـم آنـذاك لَكـن لـم تُعرِهـا الشّرطة اهتماما بالِغًا وأغلِقتِ القضية...

***

غادر الجميع الشّقة وأغلِق من خلفِهم الباب، لم يلحظ أحدٌ ما كُتب عليه، كلماتٌ خُطت من دماء:

"Teufel stirbt nie"

" الشّيطان لا يموت أبدا "

The end

" النّهاية "

أحمد لؤي مشطر

رواية منسوجة بذكريات الحرب، إنها قصة الندوب التي لا تمحى، والذكريات التي تعيش بداخل صاحبها كنخجر حاد ومسموم.
قصة الألماني ألبارت الذي أفقدته الحرب العالمية الثانية كل شي، وتعين عليه أن يواجه قدره وحيدا، بعد أن بقي فريسة لخيبته وآلامه ومشكلاته العميقة التي لا مجال لتجاوزها أو نسيانها.
كيف سيواجه كل هذه الآثار؟ وهل سيفيده العلاج؟ وكيف سينتهي إليه أمر من شاهد بعينه كل تلك المآسي؟ وما دخل الشيطان في القصة؟ هذا ما يجيبنا عنه الكاتب الشاب أحمد لؤي مشطر في هذه الرواية.

الإيداع القانوني: سبتمبر 2022
ISBN: 978-9931-9901-3-0

نسمة للنشر والتوزيع
5 نهج سايغي أحمد سيدي مبروك قسنطينة
+213 777 759 052
E.mail:editionnessma@gmail.com